الغنى والفقير

عظات يوحنا ذهبى الفم

ترجمة

نيافة الأنبا سارافيم

أسقف الأسماعيلية وتوابعها

مقدمة

عاش القديس يوحنا ذهبي الفم وخدم وكرز في فترة حاسمة من تاريخ الكنيسة المسيحية. وقد ولد حوالي عام ٣٥٠م بأنطاكيا في سوريا، بعد وقت قصير من تثبيت قسطنطين للمسيحية كديانة الإمبراطورية الرومانية الرسمية. في أنطاكيا كانت الحضارة اليونانية تتلاقى مع ثقافات الشرق الأدنى المختلفة: كانت كنيسة أنطاكيا قد أسسها القديس بولس، وزارها القديس بطرس، وتزينت بأسقفية القديس أغناطيوس حامل الإله (استشهد حوالي عام ١٠٧م). كانت أنطاكيا هى المدينة الثالثة في الإمبراطورية حتى قيام القسطنطينية، وكان تعداد سكانها يُقدّر بـ ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، أغلبهم يونانيون، ولكن كان يوجد أيضاً سريان، وفينيقيون، ورومان ويهود وآخرون. كانت المسيحية تتنافس مع أديان أخرى مختلفة، وكذلك مع الانجذاب الشديد لحضور المسارح وسباق الخيل. ازدهرت أنطاكيا بسبب موقعها على طرق التجارة، وكانت بعض العائلات في غاية الثراء في حين أن عائلات أخرى كانت في غاية الفقر، وكانت الأغلبية من الطبقة المتوسطة[١].

كان والدا يوحنا مسيحيين ومن المواطنين البارزين، غير أن الأب توفى ويوحنا ما يزال طفلاً، فكرست أم يوحنا "أنثوسا" نفسها لتربية ابنها، مهتمة بتنشئته الدينية والأخلاقية. تلقى يوحنا تعليم العصور القديمة، فكانت قراءاته تدور حول كتابات الوثنيين اليونانيين العظماء. لم يتعلم أية لغة أخرى، لا اللاتينية المستخدمة في الإدارة الإمبراطورية ولا السريانية التي يتحدث بها عامة الشعب. كان معلمه "ليبانيوس" من أشهر

---

[١] يقدر ذهبي الفم أن العُشر كانوا أغنياء والعُشر كانوا فقراء (عظة على إنجيل متى).

أنطاكيا، الذي خلف ميليتيوس، وأسندت له مهمة الوعظ والكرازة. كان يوحنا ككاهن يعظ أيام الآحاد في القداس الإلهى، وأحياناً أثناء خدمات السهر يوم السبت، وكذلك في أعياد أخرى، وفي خدمات المساء اليومية أثناء الصوم الكبير (LENT). كانت محبة الشعب له واضحة جداً، واشتهرت عظاته، إلا أنها كانت على الدوام أقل شهرة من المسارح وسباق الخيل. وكثيراً ما كان الشعب يقطع العظة بالتصفيق وعلامات الاستحسان، ولكن هذا لم يكن يعني أنهم ينفذون كلامه. كان يوحنا يوبخ الشعب على الحضور إلى الكنيسة فقط عند بداية الليتورجية ومغادرتها مع الموعوظين بعد العظة، لم يكن يريد لهم أن يستبدلوا الاشتراك في الصلوات الليتورجية والمناولة المقدسة بالإنصات فقط لعظاته. كان الشعب يتوقع منه عظة طويلة وبليغة، إلا أن ذلك كان يجعل الخدمة في أحيان كثيرة أطول من اللازم. كان يوحنا - بجانب الوعظ وتوزيع الأسرار المقدسة - يقود ويدبر الشعب بالإرشاد الروحي بصورة منفردة، وكان يحضهم على قراءة الإنجيل بانتظام. ولقد وصلتنا أخبار بعض الكوارث العامة التي كان يوحنا يقف أثناءها بجوار أسقفه في قيادة الشعب، كما أن اهتمامه بالشعب كراعٍ لابد وأنه ظهر أيضاً في أثناء كوارث شخصية عديدة.

انتهت خدمة يوحنا كواعظ في أنطاكيا فجأة بنياحة القديس نكتاريوس بطريرك القسطنطينية عام ٣٩٧م. كانت تلك بداية تورط يوحنا بغير رغبته في سياسات العاصمة الإمبراطورية، من الناحيتين الكنسية والمدنية، وبذلك بدأت مشاكله أيضاً. [لتمسك الشعب الشديد بواعظهم المشهور كان لابد من اختطافه بحيلة ليُرسم أسقفاً على القسطنطينية عام ٣٩٨م]. لا نعرف مدى اعتراضه على تلك الرسامة، لكن يبدو أنهم لم يخيّروه. ولقد قبله شعب القسطنطينية كما قبله شعب أنطاكيا من قبل.

كان أعداؤه هم الأساقفة الطامعين، ورجـال الحاشـية الإمبراطوريـة، والإمبراطورة أيودوكسيا (أو أفدوكسيا). ولقد اتهمت أيودوكسيا القـديس يوحنا بمهاجمتها حينما كان يشجب الرفاهية والفسق بصورة علنية. يكفى القول بأن يوحنا حُكم عليه بالنفي، ومع ذلك استمر في معاضدة أصدقائه الأوفياء بالرسائل عندما تعذرت مخاطبتهم وهو في السجن. تنيح القديس يوحنا في منفاه في ١٤ سبتمبر ٤٠٧ م، وهو ما يـزال يعطـي المجـد للرب.

أثناء خدمته الكهنوتية في أنطاكيا، ألقى القديس يوحنا سلسلة عظاتـه على مثل "لعازر والغني"، وكان ذلك ربما في عام ٣٨٨ أو ٣٨٩م. بـدأ يوحنا هذه السلسلة من العظات يوم ٢ يناير، مشـيراً إلـى الاحتفـالات الصاخبة في "الساتورناليا"[١] (SATURNALIA) في اليـوم السـابق الذي كان يمثل بداية السنة المدنية. ففي أثناء إقامة الحفـلات الصـاخبة حيث العربدة والخمور وموائد الطعام والتسليات الماجنة، كـان شـعب الكنيسة المؤمن يستمع إلى القديس يوحنا يحثهم على فعل كل ما يمجـد الله. والآن عاد الشعب المؤمن لليوم الثاني فقدم لهم القديس مثل "لعـازر والغني". ثم في المرتين التاليتين، على الأرجح في السبتين أو الأحـدين التاليين، استمر يوحنا يعظ على نفس المثل. وفي المرة الرابعـة أخبـر شعبه أنه كان سوف ينهي تفسيره لهذا المثل غير أن الضرورة تقتضـي تمجيد الشهداء المحليين وهم القديس بابيلاس[٢] والقديسـان جوفنتينـوس ومكسيمينوس[٣] . كان عيد القديس بابيلاس يوم ٢٤ ينـاير، أي بعـد

---

[١] عيد الإله "ساتورن" (زحل) في رومة القديمة، وكان يتميز بالاسترسال في القصف والعربدة [قاموس المورد].

[٢] أسقف أنطاكيا استشهد في عصر داكيوس (حوالي عام ٢٥٠ م).

[٣] استشهدا في عصر يوليانوس (حوالي عام ٣٦٢ م) .

ثلاثة أسابيع تقريباً من إلقاء أول عظة عن "لعازر والغني"، أما عيد جوفنتينوس ومكسيمينوس فكان بعد ذلك بأيام قليلة. في الفرصة التالية بعد ذلك، اختتم القديس يوحنا بالعظة الرابعة على المثل. وبعد أسبوع، على الأرجح، بدأ القديس العظة الخامسة من هذه السلسلة بقوله إنه يود الحديث أكثر من ذلك على المثل، ولكن لئلا يتخم المستمعون فسوف يناقش نصاً آخر عوضاً عن ذلك.

بعد ذلك ألقى القديس يوحنا العظتين السادسة والسابعة على المثل الذي كان ما يزال عالقاً بذهنه وبأذهان المستمعين من شعبه – ولعل ذلك كان في فترة لاحقة من نفس السنة . ألقى يوحنا العظة السادسة عقب زلزال مريع، حينما كانت الفرصة سانحة للحديث عن دينونة الله وعن ضرورة اختيار الطريق القويم في الحياة قبل فوات الأوان. العظة السابعة تبدأ بالعتاب على الذين يرتادون سباق الخيول، وبدأها القديس بآية "ادخلوا من الباب الضيق"، كان "لعازر" و"الرجل الغني" مثالين واضحين في ذهن يوحنا للذين يسلكون الطريق الضيق والطريق السهل الواسع.

أتاح مثل "لعازر والرجل الغني" الفرصة للقديس يوحنا لطرح العديد من آرائه المحببة. أولاً، هناك السؤال القديم جداً، لماذا نرى أبراراً يتعذبون في حين يعيش الخطاة في بحبوحة ورفاهية؟ ومن هذا السؤال يأتي سؤال آخر أخلاقي: ماذا ينتظر الله منا، أغنياءً وفقراءً؟ أو بتعبير أعم، كيف نحصل على الخلاص؟ العظات الأربع الأولى تعالج المثل آية بآية وتناقش هذه المسائل في طريقها.

في العظة الأولى ناقش يوحنا حياة لعازر والرجل الغني (لو ١٦: ١٩-٢١). يذكر المثل صفات الرجلين من الناحية الأخلاقية،

فلابد للقديس أن يناقش أخطاء حياة الرفاهية ومنافع حياة الفقر. هل كل الأغنياء يُدانون وكل الفقراء يخلصون؟ كلا، برغم أن الفقراء أمامهم فرصة أفضل. كان الخطأ الرئيسي عند الرجل الغني هو عدم إعطاء الصدقة، فلقد أهمل مهمة مساعدة قريبه. بالإضافة إلى ذلك فلقد جلب الرجل الغني الضرر لحياته الروحية بانغماسه في الملذات. أما لعازر، في المقابل، باحتماله بصبر وبدون تذمر، قد استخدم آلامه لبناء حياته الروحية. وبرغم أن القديس يوحنا لا ينكر أن الفقر مأساة أو محنة، إلا أنه لا يذكر شيئاً عن محاولة الهروب منه. فهو يهتم بالصحة الروحية وليس المادية. إذا أردنا أن نذخر لنا كنزاً في السماء، يجب علينا أن نتمم وصية المحبة نحو القريب وأن نمارس النسكيات التي تتفق مع ظروفنا لأجل منفعة أرواحنا.

تنتقل العظة الثانية إلى موت الرجلين (لو ١٦: ٢٢-٢٤). كشف الموت مَنْ هو الغني بحق ومَنْ هو الفقير بحق. فالرجل الذي عاش بمفرده حملته الملائكة، أما الآخر فإنه فقد أصدقاءه وأتباعه ونزل إلى الجحيم بمفرده. استرسل القديس يوحنا هنا في الحديث عن الواجبات الإيجابية الملقاة على عاتق الأغنياء: إذ يجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم وكلاء على ثرواتهم لصالح الفقراء، وأن يشركوهم معهم دون النظر إلى صفاتهم الأخلاقية أو المعنوية. فإذا نحن أنفقنا على أنفسنا أكثر من اللازم، نستحق نفس العقوبة وكأننا سرقنا ذلك المال. القديس يوحنا لا يقول إنه يجب علينا أن نبيع كل شئ ونعطي الفقراء، ذلك أنه لا يخاطب المدعوين للحياة الرهبانية، إنما الذين يسعون وراء الحياة في العالم بصورة مسيحية. وهو مثل آباء آخرين يوضح أن الملكية الخاصة ليست فكرة مسيحية، مهما كان ذلك مصرحاً به في القانون، يقول يوحنا ذهبى الفم:

"ممتلكاته ليست خاصة به وحده، بل وتخص خدمه أو عبيده أيضاً".
وفي عظة أخرى يسير القديس يوحنا شوطاً أبعد فيقترح العودة إلى النظام الرسولي الخاص باعتبار ممتلكات المسيحيين على أنها مشتركة، إلا أنه يدرك أن المستمعين غير مستعدين لمثل هذا التغيير الجذري، حتى داخل الجماعة المسيحية[1]. بالطبع لم يكن في استطاعة مستمعيه تغيير النظام الاقتصادي (المالي) والاجتماعي السائد في الإمبراطورية الرومانية، لذلك لا نتوقع من القديس يوحنا أن يقدم برنامجاً سياسياً. فهو يركز بصورة واقعية على الفرص المتاحة للقيام بالأعمال الصالحة، وبتقديم الصدقات والضيافة، الأمور التي يستطيع كل إنسان القيام بها.

في العظة الثالثة يتناول القديس يوحنا الطلب الأول الذي تقدم به الرجل الغني وهو أن يأتيه لعازر بنقطة ماء، وتطرق إلى رد إبراهيم (لو١٦:٢٤-٢٦). ولقد شرح العلاقة بين الكوارث والمحن التي تحل بنا أو الرخاء والرفاهية التي نتمتع بها في هذه الحياة، وبين الحالة التي سنكون عليها في الحياة الآتية. هل نستطيع أن نكسب طريقنا إلى الملكوت بعذاباتنا في هذه الحياة، إرادية كانت أو غير إرادية؟ ليس ذلك بالضبط، فبحسب رأي القديس يوحنا، إذا احتملنا العذابات الأرضية بصبر، من الممكن أن هذا يساعدنا على التخلص من بعض خطايانا ومن الدينونة التي نستحقها على تلك الخطايا. لذا يستخدم القديس تشبيهات غسل أو إذابة خطايانا، كما يستخدم تعبيرات قضائية ومالية (مثل دفع غرامة أو دين). كل واحد منا له بعض الخطايا، مهما كنا صالحين، ولكن إذا كان الاتجاه العام لحياتنا صالحاً ويميل نحو التقوى والبر، نستطيع إنهاء عذاباتنا الضرورية قبل أن نموت. بجانب ذلك،

---

[1] عظة عن أعمال الرسل.

نحتاج أن ندرب أنفسنا على الفضيلة لكي نصير على الصورة التي يريدها لنا الله. إذا كنا فقراء أو مرضى بأمراض مزمنة، يُعتبر الجهد المبذول في الاحتمال بصبر مع الشكر نسكاً كافياً. أما إذا كنا أغنياء ونتمتع بصحة جيدة، فلا بد أن نمارس تقشفاً إرادياً، وذلك لكي نتغلب على ميولنا الخاطئة وأيضاً لكي ننمى فينا شخصية ورعة وتقية. هل يتم هذا الخلاص بالأعمال؟ العلاقة بين الأعمال والإيمان لا تشكل نقطة خلاف عند الآباء اليونان. بالطبع، أن نعمة الله هى التي تخلصنا، كما يرد في صلاة القديس يوحنا عند ختام كل عظة. النعمة تساعد إرادتنا الخاصة على تربية البر في داخلنا. يركز القديس يوحنا كراعٍ ومعلم للأخلاق على ما يجب علينا أن نعمله بأنفسنا.

في نهاية العظة الثالثة يتحدث القديس يوحنا عن الهوة العظيمة التي تفصل السماء عن الجحيم وهذا يثير السؤال الخاص بالصلوات التشفعية عن الموتى. آباء الكنيسة الأرثوذكسية يعلّمون عموماً، مستخدمين نصوصاً إنجيلية مثل هذا المثل، بأننا يجب أن نختار الوقوف في صف الله أو ضده في هذه الحياة الحاضرة، وأننا حالماً نمضي للحياة الأخرى سوف لن تكون لنا أية فرصة للهروب من الجحيم. لذلك يقول القديس يوحنا لشعبه هنا، إنهم إذا لم يبذلوا جهدهم للحصول على الفضيلة أثناء حياتهم الحاضرة، فلا يجب أن يتوقعوا إطلاقاً أن يخلصوا بعد الموت بصلوات الآخرين، ولا حتى بصلاة أبيهم الروحي أو أحد أقربائهم القديسين. وبرغم ذلك فإن الكنيسة تصلي صلوات تقليدية (Traditional) لأجل الموتى، وهى ممارسة يعترف بها القديس في عظته. وهنا يرغب القديس يوحنا، مثل سيده أن يطبع في أذهان سامعيه ضرورة الدخول إلى طريق البر وهم في هذه الحياة.

العظة الرابعة تتناول الطلب الثاني الذي تقدم به الرجل الغنـــي، أي أن يذهب لعازر لزيارة إخوته (لو ١٦:٢٧-٣١). إذا لـــم نســـتقبل زواراً من العالم الآخر، لماذا يجب أن نؤمن بالدينونة بعد الموت؟ أولاً، عنـــدنا موسى والأنبياء، وكل الأسفار المقدسة. ثانياً، المنطق يقول بأنه إذا كان الله عادلاً، وإذا كان الناس لا ينالون ما يســـتحقونه فـــي هـــذه الحيـــاة الحاضرة، فلابد إذاً من وجود زمان للمجازاة[١] بعد الموت. ثالثاً، لابـــد وأن الله قد أعطانا الضمير لهدف معـــين. فالضـــمير يجـــب أن يـــدفعنا للاعتراف بخطايانا. إذا نحن تبنا واعترفنا بخطايانا، فإن الله يغفر لنـــا، ويشفينا، ويساعدنا على أن نصير أتقياء. وموضـــوع الضـــمير يـــذكّر القديس يوحنا بيوسف وإخوته. فلقد شعر إخوته بتأنيب الضمير حتى قبل تعرفهم على يوسف في مصر. ويقدم يوسف، مِثل لعازر، مثـــالاً للثقـــة بصبر في رعاية الله وعنايته. ثم يختتم القديس يوحنا بتلخيص مـــا قالـــه في هذه العظات الأربع: إذا كنا قد أخطأنا (كما نفعل جميعاً)، يجـــب أن نتوب ونعترف، يجب أن نقدم الصدقات ونمارس الفضيلة لكي نبعد عنـــا خطايانا ونعد أنفسنا للحياة في السماء.

بعد وقت قصير، على الأرجح في نفس السنة، وقع زلزال مريع في أنطاكيا تسبب في دمار وحوادث وأحزان كثيرة. بـــدأ القـــديس يوحنـــا عظته[٢] بالقول إنهم أمضوا ثلاثة أيام في الصـــلاة ولكـــن الآن انتهـــى الزلزال. هذه العظة أطول ولكنها أقل ترتيباً من الأربع السابقة، لدرجـــة أن الإنسان يشك في أن القديس كان يعظ بصورة مرتجلة، مستخدماً آراء وردت في ذهنه حديثاً أو أوحتها إليه الحالة الحاضرة. فقد كـــان يوحنـــا يدرك أن موضوعه مألوف أيضـــاً لـــدى السامعيـــن، غير أنه يطلـــب

---

[١] RECOMPENSE ، أي المكافأة أو العقاب.

[٢] وهي العظة السادسة في هذه السلسلة. العظة الخامسة حُذفت لعدم ارتباطها بالموضوع.

منهم الإنصات بصبر. فكثيراً ما كان يطلب منهم الانتباه لكلامه، وكثيراً ما كان يذكّر نفسه بالموضوع. ويقول القديس، إن الزلزال يجب أن يذكرنا بدينونة الله، التي لم تصبنا في هذه المرة. فعلى الفقير أن يصبر، والغني أن يقدم الصدقات. كل إنسان يجب أن يسعى وراء الفضيلة – الغني والفقير، الرجال والنساء، الأحرار والعبيد. عند هذه النقطة يترك القديس الموضوع الرئيسي ويستطرد في الحديث عن أصل العبودية. يقول يوحنا إن البشر خُلقوا كلهم أحرارا، حواء كما آدم. دخلت العبودية بخطيئة حام، الذى نظر عري أبيه نوح وجلب على نفسه لعنة أبيه. أما من وجهة النظر المسيحية، فإن العبد الحقيقى هو الإنسان المستعبد للخطيئة، أما العبد التقي والورع فهو في الحقيقة حر. هنا يستخدم القديس أسلوب المفارقات (PARADOX) المشهور لدى الفلاسفة الرواقيين. ثم يذكّره موضوع العبودية بأنسيمُس، العبد الذي حررته فضيلته. لم يسترسل يوحنا لدرجة أن يقول إنه ينبغي على المسيحيين أن يحرروا عبيدهم، فبرغم أن البيزنطيين الأتقياء كانوا يفعلون ذلك بإرادتهم أو عند دخولهم إلى الحياة الرهبانية، إلا إن المجتمع لم يكن مستعداً بعد بصورة عامة لعتق العبيد. أما بالنسبة لنا، هل نحن مستعدون لقبول كل كائن بشري كإبن حر لله، مهما كانت طبقته الاجتماعية أو أسلوب عمله أو وظيفته (أو حتى لو كان بدون عمل)؟

تعود العظة بعد ذلك إلى موضوعها الأساسي فيتحدث القديس يوحنا عن المجازاة[١] التي نالها لعازر والرجل الغني. فلقد نال الغني مكافأة أعماله الصالحة هنا في هذه الحياة، لكي ينال عقابه كاملاً بعد ذلك. كان في استطاعته أن يساعد نفسه إذا أشرك الفقراء في رخائه، أما الآن

---

[١] تشمل المكافأة أو العقاب.

فليس له فرصة لتخفيف عذابه. كذلك نال لعازر عقوبة خطاياه، مهما كانت تلك الخطايا، هنا في هذه الحياة، لئلا تقلل من نعيمه بعد ذلك. وعند نهاية العظة يضيف القديس يوحنا أنه من المحتمل أن يجلب الإنسان على نفسه عذابات في الحياة الحاضرة تفوق ما تستحقه خطاياه، وفي هذه الحالة يصل هذا الإنسان إلى السماء وله رصيد (أو دين) من جهة البر. ومن المحتمل أن هذا يمكن أن يعطيه نعيماً أعظم بين القديسين في السماء.

أما العظة السابعة والأخيرة على مثل لعازر والرجل الغني فتبدأ بشجب الذين يترددون على سباق الخيول. النص هو: "ادخلوا من الباب الضيق" (مت ٧: ١٣، ١٤). لماذا كان سباق الخيل يشكّل موضوعاً في غاية الخطورة؟ كانت هناك مصارعات بين الأشخاص[١]، وسباقات بعربات تجرها الخيول، أو على الأقل معارك بين المصارعين[١] والوحوش المفترسة. وربما كانت هناك عروض غير لائقة بين الفقرات. يقول القديس يوحنا إن المسيحيين الذين يتواجدون في السباقات يقدمون مثالاً سيئاً أمام المقبلين على الإيمان. وبجانب ذلك ، فهم يضيّعون وقتهم سدى، والأهم من ذلك أنهم يبطلون عمل التداريب الروحية التي يمارسونها في الكنيسة. لعلهم، مثل بعض الناس في هذه الأيام، يستبدلون الاهتمام بالدين بالألعاب الرياضية منحازين إلى هذا المتسابق أو ذاك. على كل حال، هؤلاء الناس يسيرون في الطريق السهل الواسع الذي يؤدي إلى نهاية سيئة.

الطريق الواسع والباب الضيق يستعيدان إلى ذاكرة الواعظ مَثَلَ

---

[١] GLADIATOR: المُجالد: شخص وبخاصة عبد أو أسير يقاتل حتى الموت لإمتاع الناس في رومة القديمة [قاموس المورد].

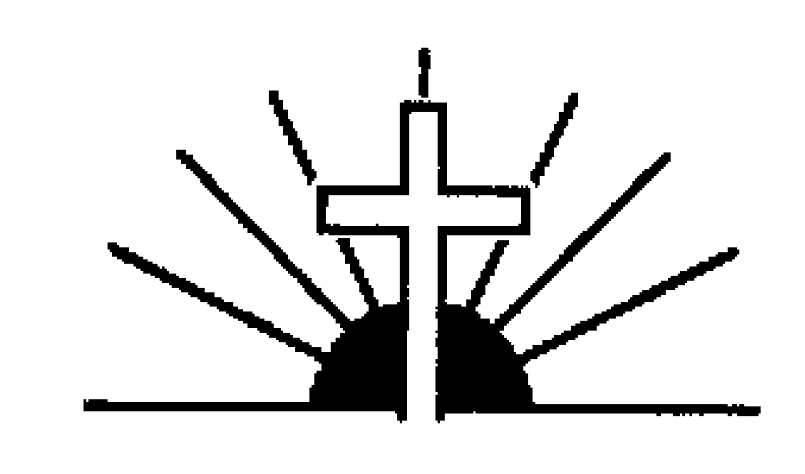
الغني ولعازر: فالرجل الغني كان يسير على الطريق الرحب والسهل ولعازر على الطريق الضيق الكرب. وبالإضافة إلى ما قاله القديس من قبل، فهو يعالج هنا موضوع ما إذا كان الغِنَى حقاً شيئاً صالحاً بالفعل، وما إذا كان الفقر في الواقع شراً. ويستخدم يوحنا مرة أخرى مفارقة (PARADOX) من النوع الرواقي (STOIC). فلقد نال الرجل الغني في حياته على الأرض ما كان يظنه صالحاً وحسناً، ولكنه لم يدرك أن هناك أشياء أخرى أفضل من ذلك بكثير. أما لعازر، في المقابل، في حين أنه نال ما يظنه الرجل الغني شراً ومصيبة (أي، الفقر والمرض)، كان يتطلع إلى ما وراء المظاهر ويجاهد في سبيل الأشياء الصالحة بالفعل والحق، أي في سبيل الفضيلة وفي سبيل مكافأته السمائية.

●●●

الترجمة الإنجيليزية الحالية لهذه العظات تعتبر حديثة واعتمدت على النص المطبوع في مجموعة "مين" (MIGNE) [باترولوجيا جريكا – PG, ٤٨,٩٦٣ -١٠٥٤]، مع حذف العظة الخامسة وبعض الفقرات الأخرى التي ليست لها علاقة مباشرة بموضوع "الغني والفقير". شواهد العهد القديم التي يستخدمها القديس يوحنا هى بالطبع بحسب النسخة السبعينية [ولذلك تختلف أحياناً في النص عن النسخة المتداولة].

كاثرين ب . روث

إنجلترا – مايو ١٩٨٤



العظة الأولى للقديس يوحنا ذهبى الفم على مثل " لعازر والرجل الغنى"

أمس، برغم أنه كان عيد للشيطان[١]، إلا أنكم فضلتم إقامة عيد روحي، متقبلين كلماتنا بإرادة صالحة جداً، وقضيتم أغلب اليوم هنا في الكنيسة، وشربتم من خمر ضبط الذات، وتمتعتم بالترتيل في خورس القديس بولس، وبهذه الطريقة أصبتم منفعة مضاعفة، إذ أنكم تجنبتم رقص السكارى الخليع، وتمتعتم بالفرح الروحي المنظم للغاية. لقد اشتركتم في طاس الخمر التي لا تسكب خمراً معتقاً إنما امتلأت بالإرشاد الروحي. لقد صرتم قيثارة ومزماراً للروح القدس. وفي حين كان الآخرون يرقصون للشيطان، أعددتم أنتم أنفسكم بانشغالكم هنا لتكونوا آلات وأواني روحية. لقد سمحتم للروح القدس بالعزف على أرواحكم وأن يبث نعمته في قلوبكم. وبذلك عزفتم لحناً منسجماً للمسرة لا يفرح به البشر وحدهم بل والقوات السمائية أيضاً .

[القديس يوحنا هنا يحث شعبه على أن لا يكفوا عن محاولة تقويم الذين يشربون الخمر بكثرة. فنحن نؤدي مهمتنا في تقديم النصائح المفيدة حتى ولو لم ينتبه لها أحد].

ولكنني أثبت بما فيه الكفاية أنه لا يجب علينا إطلاقاً أن نتخلى عن الساقطين، حتى ولو كنا نعلم مسبقاً أنهم لن يستجيبوا لنصائحنا. والآن فلنتقدم إلى إدانة حياة الرفاهية والبذخ. فطالما كان هذا العيد مستمراً، وإبليس يطعن نفوس السكارى بالخمر، تظل مهمتنا أن نقدم الأدوية والعلاجات.

---

[١] أعياد الساتورناليا، راجع المقدمة.

بالأمس حصنّا أنفسنا ضد السكارى مستخدمين كلمات بولس الرسول: "فإن كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئاً فافعلوا كل شيء لمجد الله" (١كو١٠: ٣١). واليوم سوف نريهم معلم بولس، الذي لا يكتفي بنصحهم وحثهم على الامتناع عن حياة البذخ واللهو، بل ويؤدب ويعاقب بالفعل الإنسان الذي يعيش في رغد ورفاهية، ذلك أن قصة الرجل الغني ولعازر، وما حدث لكليهما، تبين بوضوح هذا الأمر عينه. ولكن من الأفضل أن أقرأ لكم المثل كله من البداية، لئلا نفسره بإهمال. "كان إنسان غني وكان يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً. وكان مسكين اسمه لعازر الذي طُرح عند بابه مضروباً بالقروح، ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغني. بل كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه" (لو١٦: ١٩-٢١).

لعلنا نتساءل لماذا يتحدث الرب بأمثال، ولماذا فسر بعض الأمثال ولم يفسر غيرها، وما هو المثل في حقيقته، وأسئلة أخرى كثيرة مثل هذه – إلا أننا سوف نؤجل مناقشة هذه الأمور لمرة أخرى، لئلا نُعطل هذا الموضوع الهام الذي نتناوله الآن. سوف نسألكم هذا السؤال فقط، مَنْ من الإنجيليين يخبرنا بأن المسيح قال هذا المثل، مَنْ؟ لوقا وحده. يجب عليكم أن تعلموا هذا أيضاً، أن الإنجيليين الأربعة سجلوا كلهم بعض أقوال المسيح، إلا أن كل واحد منهم اختار أقوالاً أخرى ليسجلها أيضاً. لماذا؟ لكي يجعلنا نقرأ الأناجيل الأخرى، ولكي يجعلنا ندرك عظمة هذا الاتفاق بينها. فإذا ذكرت الأناجيل الأربعة كل شيء، لما انتبهنا بتدقيق إلى كل واحد منها، لأن أحدها كان يكفي لنعرف منه كل شيء. وفي نفس الوقت إذا كان كل ما ورد يختلف من إنجيل لآخر، لما رأينا اتفاقها العجيب. لأجل ذلك ذكرت الأناجيل الأربعة جميعها أموراً كثيرة مشتركة إلا أن كل إنجيل اختار بعض الموضوعات لينفرد بذكرها.

والآن، ما يعلمنا إياه المسيح بهذا المثل هو ما يلي: كان إنسان غني، يقول الرب، يعيش وسط شرور عظيمة. هذا الإنسان لم يُجرَّب بأي سوء حظ أو محنة، بل كان كل شيء متيسراً أمامه وكأنه يتدفق من ينبوع. وتشير الكلمات "وكان يتنعم كل يوم مترفهاً" إلى أنه لم يواجه يوماً أمراً لا يتوقعه، ولم تكن في حياته أية أسباب للحزن أو الأسى. كما أنه من الواضح أن الرجل الغني كانت حياته شريرة، وذلك من النهاية السيئة التي كانت من نصيبه، وكذلك من ازدرائه بالفقير قبل أن يصل إلى تلك النهاية. ولقد أظهر هذا الغني ليس فقط أنه أهمل ذلك المسكين الملقى على بابه بل وأنه لم يعطِ صدقة لأي مسكين آخر أيضاً. ذلك أنه إذا لم يتصدق على ذلك المسكين المنطرح باستمرار على بابه، الملقى أمام عينيه، والذي لابد وأنه كان يراه في كل يوم مرة أو مرتين أو مرات عديدة كلما دخل وخرج، لأن ذلك المسكين لم يكن ممدداً في أحد الشوارع أو في مكان خفي أو ضيق، بل حيث لابد للغني أن يراه غصباً عنه في خروجه ودخوله، أقول ، إذا لم يتصدق الغني على هذا الفقير الملقى وسط عذابات مريعة، والمعدم إلى هذا الحد، أو الذي كان طوال حياته تعذبه أمراض مزمنة في غاية الخطورة، فمَنْ من الذين كان يقابلهم هذا الغني كان يستطيع أن يثير شفقته؟ وإذا افترضنا أنه مر بذلك المسكين في اليوم الأول دون أن يأبه به، كان من المفروض أن يشعر ببعض الشفقة نحوه في اليوم الثاني، وحتى إذا أغفله في ذلك اليوم، لابد وأنه كان يجب أن يشفق عليه في اليوم الثالث أو الرابع أو في اليوم التالي، حتى ولو كان ذلك الغني أكثر وحشية من الحيوانات المفترسة. غير أن ذلك الغني لم يشعر يوماً بمثل هذه الشفقة، بل وصار قلبه أكثر قسوة وتهوراً حتى أكثر من ذلك القاضي الظالم الذي لا يخاف الله ولا يهاب إنساناً (لو١٨: ٢). ذلك أن إلحاح الأرملة على ذلك القاضي، برغم

قسوته ووحشيته، دفعه أن يهبها ما تريده. لقد تحركت الشفقة داخله بسبب توسلاتها، غير أن الإلحاح المستمر لم يستطع أن يدفع هذا الغني لمساعدة لعازر المسكين، برغم أن التماس لعازر لا يتساوى مع التماس الأرملة، بل هو أسهل من ذلك بكثير في تنفيذه وأكثر عدلاً. ذلك أن الأرملة طلبت من القاضي أن ينصفها من خصمها، أما لعازر فكان يلتمس من الغني أن ينصفه من الجوع وأن لا يهمله هكذا وهو منطرح يصارع الموت. الأرملة ضايقتا القاضي بتوسلاتها، أما لعازر فكان يظهر أمام الغني عدة مرات في كل يوم وهو ملقى في صمت. كان ذلك كافياً حتى لتليين قلب من حجر. ذلك أننا عندما نتضايق نصير في الغالب أكثر قسوة، ولكن عندما نرى المحتاجين يقفون في صمت كامل، لا يتفوهون بكلمة، ولا يتذمرون برغم عوزهم وفقرهم، إنما هم يظهرون فقط أمامنا في صمت، فحتى إذا كنا بدون إحساس أكثر من الحجارة ذاتها، سوف نخجل من فرط تأدبهم وتتحرك فينا الشفقة. وهناك حقيقة أخرى ليست أقل أهمية مما ذُكِر، وهى أن منظر لعازر المسكين كان في حد ذاته يثير الشفقة، ولقد صرعه الجوع والأمراض المزمنة. برغم ذلك لم يؤثر كل هذا في ترويض وحشية وقساوة الرجل الغني.

هذه الوحشية هى من أسوأ أنواع الشرور، فهى عدم إنسانية إلى أقصى درجة. إذ أن الأمر يختلف إذا كان هناك مَنْ هو معدم ولا يساعد المحتاجين، عن أن يتمتع الإنسان بمثل هذا الرخاء ومع ذلك يهمل الآخرين الذين يهلكون جوعاً. أيضاً، يختلف الأمر من أن يرى الإنسان أحد الفقراء مرة أو مرتين ويتغاضى عنه، عن أن ينظره يومياً ولا تتحرك داخله كوامن الرحمة والكرم من هذا المنظر المستديم. كذلك فإن الأمر يختلف إذا كان هناك إنسان محزون القلب ويعاني من محن كثيرة ولم يقدم يد العون لقريبه، عن إنسان يتمتع بسعادة مثل هذه وبحسن الحظ

الدائم ثم يتغاضى عن الآخرين الذين يتضورون جوعاً، ويغلق أبواب قلبه، ولا تدفعه أفراحه المستمرة ليكون أكثر سخاءً وكرماً. إذ أنتم تعرفون ذلك بالتأكيد، أننا حتى لو كنا أكثر الناس وحشية وقسوة، فإن حسن الحظ والثروة من المفروض أن يجعلانا عادة أكثر رقة ولطفاً. غير أن ذلك الغني لم تتحسن طباعه بسبب الرخاء ورغد العيش، بل ظل متوحشاً كما هو، أو بالأحرى فاق الحيوان في وحشيته وقسوته.

ومع كل ذلك كان الرجل الغني الذي يعيش وسط الشرور وعدم الإنسانية يتمتع بكل أنواع السعادة، في حين أن لعازر البار الذي كان يمارس الفضيلة احتمل أقسى أنواع المحن والمصائب. ونستطيع أن نثبت أن لعازر كان تقياً وباراً وذلك من النهاية التي كانت من نصيبه، وكذلك من احتماله الفقر بكل صبر وطول أناة أثناء حياته على الأرض. ألا ترى الوضع كاملاً وكأنه حاضر أمامك؟ الرجل الغني كانت سفينته ممتلئة بكل أنواع البضائع، وتسير سيراً حسناً أمام الريح. ولكن لا تندهش: كان الغني يسرع نحو غرق سفينته لأنه رفض تفريغ بضاعته بإفراز وتمييز. هل أذكر لكم شراً آخر لهذا الغني؟ هو تنعمه اليومي وولائمه الصاخبة. إذ إن ذلك بالتأكيد هو من أفظع الشرور، ليس الآن وحسب، حيث يتوفر لدينا مقدار كبير من الحكمة، بل وحتى في البداية، تحت ناموس العهد القديم حيث لم تكن الحكمة متوفرة بهذا المقدار. اسمع ما يقوله النبي: "الويل... لكم يا مَنْ تقتربون من اليوم الشرير، يا مَنْ تقتربون وتحفظون سبوتاً كاذبة" (عا ٦:٣ بحسب الترجمة السبعينية) ماذا يعني "وتحفظون سبوتاً كاذبة"؟ يعتقد اليهود أن السبت أُعطى لهم للبطالة والكسل. لم يكن ذلك هو الغرض، إنما لكي ينزعوا أنفسهم من الاهتمامات العالمية ويكرسوا وقت الراحة كله للاهتمامات الروحية. من

الواضح أن السبت لم يكن لأجل البطالة إنما للعمل الروحـــي. والكـــاهن كان له بالفعل عمل مضاعف في ذلك اليوم: ففي حين كانت ذبيحة واحدة تُقدَّم في كل يوم، كان من المطلوب تقديم ذبيحة مضاعفة في يوم السبت. فإذا كان السبت للبطالة فقط، لكان يجب أن يكون فيه الكاهن بطالاً أكثر من باقي الشعب. وبما أن اليهود، برغم تحررهم من الأعمال العالمية، لم يهتموا بالأمور الروحية، مثل ضبط الذات، واللطف، وســماع الأســفار الإلهية ، إنما فعلوا العكس ، أتخموا بالأطعمـــة ، وســكروا ، وأقــاموا الموائد والحفلات المترفة، لذلك أدانهم النبي. إذ إنه عندما قال: "ويــل... لكم يا مَنْ تقتربون مِنْ اليوم الشرير"، ثم أضـــاف: "وتحفظـــون ســبوتاً كاذبة"، وضّح بكلماته التالية كيف كانت سبوتهم كاذبة (أو باطلة). كيــف جعل اليهود سبوتهم باطلة؟ بعمل الشر، بالتنعم والموائد، بشرب الخمــر، وبعمل أمور كثيرة مخزية ومحزنة. ولإثبات صحة هذا الكلام، انصــتوا لما يلي: فالنبي يوضح قولي هذا بكلماته التالية مباشرة: "المضــطجعون على أسرّة من العاج والمتمددون على فرُشهم والآكلون خرافاً من الغــنم وعجولاً من وسط الصيرة... الشاربون من كؤوس الخمر والذين يدّهنون بأفضل الأدهان" (عا ٦:٤-٦). لقد أعطي لكم الســبت لكــي تحــرروا أنفسكم من الشرور، لكنكم أستُعيدتم لها أكثر. إذ ما هو الأسوأ من هــذه التفاهة، أي هذا النوم على أسِرَّة من العاج؟ إن بــاقي الخطايــا، مثــل السكر، والجشع، والخلاعة، هى أمور تعطي الإنسان بعض اللــذة ولــو قليلاً، ولكن النوم على أسِرَّة من العاج، فأية لذة في هذا الأمر؟ أي نــوع من الراحة؟ إن جمال السرير لا يجعل نومنا أكثر هناءً أو لــذة، ألــيس كذلك؟ بل بالعكس، يجعله أكثر إرهاقاً وتعباً، إذا كان لنا أي منطق سليم. فإنه عندما تفكر في أنك تنام على سرير من العاج، وآخر لا يجد حتى ما يسند به جوعه، أفلا يدينك ضميرك ويثور عليك لتتخلى عن هذا الظلــم؟

أما إذا كانت التهمة هى النوم على أسرة من العاج مطعمة من كل ناحية بالفضة، فأي دفاع نقدمه؟

أتود أن تعرف ماذا يجعل السرير جميلاً بحق؟ سوف أريك الآن جمال سرير، لم يكن لمواطن عادي أو لأحد الجنود، بل لملك. لأنك حتى لو كنت أكثر الناس طموحاً، فأنا متأكد أنك لا تطمع في سرير أكثر بهاءً وروعة من سرير ملك، بل والأكثر من ذلك، أنا لا أشير لملك عادي، بل لأعظم الملوك، الذي ما يزال العالم كله يكرمه بالتراتيل والمدائح حتى الآن: سوف أريك سرير الملك داود. فأي نوع من الأسّرة كان يستخدمه؟ لم يكن سريره مزيناً من كل ناحية بالفضة أو الذهب، إنما بالدموع والاعترافات. والملك داود نفسه يخبرنا بذلك في قوله: "أعوّم كل ليلة سريري، بدموعي أبلل فراشي" (مز٦:٦) فهو يرصع سريره بالدموع من كل ناحية وكأنها جواهر ثمينة. ثم تأمل معي كيف كان يحب الرب داخل نفسه. ولأجل أنه كان في النهار ينشغل بالحكام والقواد والولايات والشعوب والجنود والحروب والسلام والسياسات، وبالاضطرابات الواقعة داخل بيته أو خارجه أو بين جيرانه، وكان كل ذلك يشتت فكره ويزعجه، استغل داود فترة الراحة التي يخلد فيها الجميع للنوم، لكي يقدم توبته واعترافاته وصلواته ودموعه. ولم يكن داود يفعل ذلك في ليلة واحدة فقط، ثم يتوقف في الليلة التالية، بل ولم يفعل ذلك في ليلتين أو ثلاث ويرتاح في الليالي التي بينها، إنما استمر داود هكذا كل ليلة. إذ يقول: "أعوّم كل ليلة سريري، بدموعي أبلل فراشي"، مما يدل على كثرة بكائه والاستمرار في ذلك كل ليلة. ففي الوقت الذي كان الجميع فيه هادئين ونائمين، يتقابل داود مع الله وحده، بعين لا تعرف النوم من كثرة البكاء والنحيب والاعتراف بخطاياه الخاصة. أنتم أيضاً يجب أن تعملوا لكم سريراً مثل هذا. إن الفضة التي

تحيط بكم تثير الحسد في الناس وتحرك غضب الله عليكم من فوق، أما الدموع مثل دموع داود فهي قادرة على إطفاء نيران جهنم ذاتها.

هل أريكم سريراً آخر؟ أقصد سرير يعقوب. كانت الأرض الجرداء تحته وحجر تحت رأسه. لأجل ذلك رأى الصخرة[1] الروحية والسلم الذي كانت الملائكة تصعد وتنزل عليه (تك ٢٨، قارن ١كو١٠:٤). فلنثبت أذهاننا نحن أيضاً على أسرّة مثل هذا السرير، لكي نرى أحلاماً مشابهة. ولكن إذا رقدنا على أسرّة من الفضة، فأننا لن نشعر بأية لذة، بل وأيضاً سوف نشعر بالضيق والأسى. ذلك أنك عندما تفكر أنه في الليالي القارسة البرد، وفي منتصف الليل، ها أنت ترقد على سرير، والفقير يلقي بذاته على كومة من القش بجوار باب الحمام العمومي، ويلف نفسه بأعواد القش، مرتجفاً ومتيبساً من شدة البرد، والجوع يقرض أحشاءه – فحتى إذا كنت أكثر الناس تحجراً، أنا متأكد أنك سوف تدين نفسك على أنك توفر لها الرفاهية غير الضرورية في حين أنك لا تقدم للفقير حتى ما هو ضروري. مكتوب : "ليس أحد وهو يتجند يرتبك بأعمال الحياة " (٢تي ٢:٤). فأنت جندي في الروحيات، ومثل هذا الجندي لا ينام على سرير من العاج، إنما على الأرض وهو لا يدهن بالأطياب: لأن هذه هى اهتمامات الرجال الفاسدين الذين يغازلون العاهرات، أو الذين يمثلون على المسارح، أو الذين يعيشون بدون مبالاة. أما أنت فلا يجب أن تكون رائحتك هى رائحة الأطياب إنما رائحة الفضيلة. فلا يوجد ما ينجس النفس أكثر من دهن الجسد بمثل هذه الروائح والعطور. ذلك أن رائحة الجسد هذه، ورائحة الملابس المعطرة تكشف عن عفونة ونتن الإنسان الداخلي. عندما يهاجم إبليس النفس

---

[1] صخور كثيرة في الكتاب المقدس كانت تمثل السيد المسيح.

ويهزمها بالانغماس في الملذات، ويملأها بالطيش والعبث، يمسح ما تركه من أثار نتنة على الجسد بهذه العطور والروائح. تماماً كما أن المصابين باستمرار بالزكام والرشح يوسخون ملابسهم وأيديهم ووجوههم بمسحهم المستمر للافرازات الخارجة من أنوفهم، هكذا أيضاً تمسح نفسُ هذا الرجل الشرير إفرازات الشر العالقة بالجسد. مَنْ يتوقع أي شيء صالح ونبيل من الإنسان المعطر بالروائح والمرافِق للنساء، أو بالحري للعاهرات، والذي يعيش حياة الرقص والمجون؟ لتكن نفوسكم معطرة بالروائح الروحية، لتجنوا منفعة عظمى لذواتكم ولرفقائكم.

لا يوجد ما هو محزن أكثر من الرفاهية والرخاء. هذا ما يقوله عنها موسى النبي: " سمنتَ وغلظتَ واكتسيتَ لحماً. فرفضت الإله الذي عملك" (تث ٣٢:١٥). لم يقل موسى إنه تراجع، إنما رفض الإله، مشيراً إلى أي درجةٍ تَكَبّرَ وأطلقَ العنان لنفسه. ويقول موسى في موضع آخر، عندما تأكل وتشرب: "احترز من أن تنسى الرب إلهك" (تث ٨:١١). بهذه الطريقة تقود الرفاهية غالباً إلى النسيان. أما بالنسبة لك، يا حبيبي، متى جلست لتأكل، تذكر أنك سوف تقوم من المائدة إلى الصلاة. فاملأ معدتك باعتدال لئلا تثقل عليك وأنت تركع لتناجي الله. أما رأيت كيف تترك الحمير مذودها لتستعد للسير ولحمل الأثقال وتأدية المهام المطلوبة منها؟ أما أنت فإنك عندما تقوم من على المائدة تكون بلا نفع وعاجزاً تماماً عن القيام بأي عمل. أما كان ينبغي أن تكون أكثر نفعاً من الحيوانات؟ لماذا أقول ذلك؟ لأن ذلك هو الوقت الذي تحتاج فيه، أكثر من أي وقت آخر، أن تكون رزيناً ومتيقظاً تماماً (قارن ١تس ٥:٦، ١بط ٥:٨). الوقت الذي يأتي بعد الغداء هو وقت تقديم الشكر، والذي يشكر يجب أن لا يكون سكراناً، إنما رزيناً وصاحياً تماماً. دعنا لا نذهب بعد الأكل لننام بل لنصلي، وإلا فسوف نكون بلا عقل أكثر من الحيوانات اللاعاقلة.

أعرف أن كثيرين سوف يشجبون كلامي هذا، معتقدين أنني أُدخِل على حياتنا عادة جديدة وغريبة، غير أنني سوف أشجب بقوة أعظم تلك العادات الشريرة التي تسود علينا. فلقد أوضح المسيح بجلاء كامل أنه ينبغي علينا بعد تناول الطعام أن لا نخلد للنوم بل أن نصلي ونقرأ في الأسفار الإلهية. بعدما أشبع المسيح الجموع الغفيرة في البرية، لم يرسلهم للنوم، إنما دعاهم لسماع كلامه الإلهي. كما أنه لم يملأ بطونهم إلى حد الانفجار، ولم يسمح لهم بالسكر، بل بعدما أشبع جوعهم قادهم إلى الغذاء الروحي. دعنا نعمل نفس الشيء، ودعنا نعوّد أنفسنا على أكل ما يكفينا فقط لنعيش، وليس ما يثقل علينا ويشتتنا. لأننا لم نُولد، ولا نعيش، لكي نأكل ونشرب، إنما نحن نأكل لكي نعيش[1]. إن الحياة في البداية لم تُوهب لأجل الأكل، إنما الأكل لأجل الحياة. أما نحن، وكأننا أتينا إلى العالم لأجل هذا الغرض، ننفق كل ما عندنا على الأكل.

والآن، لكي نجعل شجبنا للرفاهية أكثر وضوحاً وأكثر صلة بالموضوع لمَنْ يمارسونها، دعنا نعود مرة أخرى إلى لعازر. هكذا تصير نصيحتنا ومشورتنا أكثر صدقاً ووضوحاً، عندما نرى المهتمين بحُسن المأكل يُسلّمون للتأديب والعقاب، ليس بالكلام إنما بالفعل. بما أن الرجل الغني عاش وسط هذه الشرور، وكان يتنعم مترفهاً كل يوم، ويلبس البز والأرجوان، فهو كان يعد لنفسه بذلك عقاباً أشنع، مشعلاً لنفسه ناراً أكثر تأججاً، وجاعلاً عقابه لا يلين وجزاءه لا يقبل العفو والمغفرة. أما الرجل المسكين، في المقابل، كان منطرحاً على باب الغني دون أن ييأس أو يجدف أو يتذمر. لعازر لم يقل لنفسه ما يقوله الكثيرون: "ما هذا؟ هذا الرجل يعيش في الشر والوحشية وعدم الإنسانية، ويتمتع بكل شيء بما

---

[1] جاء عن سقراط أنه قال إن أغلب الناس يعيشون ليأكلوا ، إنما هو يأكل ليعيش.

يفوق احتياجه، ولا يعاني مع ذلك من أي حزن أو من أية ضيقة أو مشكلة غير – متوقعة (من بين المشاكل الكثيرة التي تضايق كافة البشر)، بل هو يتمتع بلذة خالصة لا يشوبها كدر، أما أنا فلا أستطيع حتى الاشتراك في الغذاء الضروري. كل شيء يتدفق أمامه بكثرة كما من ينبوع برغم أنه ينفق كل أمواله على المتطفلين، والمرائيين والسكارى، أما أنا فأرقد هنا ليتفرج عليّ كافة الناس، وأصبح موضعاً للازدراء والسخرية، أذوب جوعاً. هل هذا هو عمل العناية الإلهية؟ أما من عدل يسود أعمال كافة الناس؟ "لعازر لم يقل أو حتى لم يفكر في أي شيء من هذا. كيف نعرف ذلك؟ من حقيقة أن الملائكة حملته منتصراً، وأجلسته في حضن إبراهيم. فإذا كان لعازر مجدفاً لما تمتع بمثل هذه الكرامة العظمى.

كثيرون يقدّرون لعازر لهذا السبب فقط، أي لكونه فقيراً، ولكنني أستطيع أن أبيّن أنه احتمل تسعة تأديبات، حلّت به لا كعقاب، إنما لتهبه مجداً وكرامة أعظم، وهذا ما تم بالفعل. أول كل شيء، أن الفقر أمرٌ شنيع بالفعل، وهذا ما يعرفه كل من جرّبه، إذ لا توجد كلمات تصف شدة الأسى الذي يتحمله الفقراء والشحاذون الذين تعوزهم الحكمة. أما بالنسبة للعازر، لم يكن الفقر مشكلته الوحيدة، إنما أرفق معه المرض، فكان لعازر مريضاً إلى أقصى درجة. انظر كيف يكشف المثل هاتين المصيبتين لأقصى حد. فلقد بيّن المسيح أن فقر لعازر فاق كل فقر آخر في ذلك الزمان، وذلك عندما قال إن لعازر لم يتمتع حتى بالفتات الساقط من مائدة الغني. كذلك أظهر المسيح أن مرض لعازر وصل إلى نفس درجة فقره، أي إلى حد لا يمكن أن يكون بعده مرض، وذلك عندما قال إن الكلاب كانت تلحس قروحه. كان لعازر في أقصى درجات الضعف لدرجة أنه لم يستطع أن يطرد الكلاب عنه، بل كان منطرحاً مثل جثة حية، ينظر الكلاب تأتي نحوه وليست فيه قوة كافية لحماية نفسه منها.

كانت أطرافه في غاية الضعف، ولقد هزلت إلى أقصى درجة بالمرض، وتآكلت بالمحن إلى الغاية القصوى. هل ترى كيف أحاط الفقر والمرض بهذا الجسد إلى أقصى درجة؟ فإذا كان كلٌ منهما على انفراد يُعتبر شنيعاً وغير محتمل، فعندما يمتزجان سوياً، ألا يكون الرجل الذي يحتملهما صلباً كالفولاذ؟ كثيرون يمرضون، ولكنهم لا يفتقرون إلى الغذاء الضروري، وآخرون يعيشون في فقر مدقع ولكنهم يتمتعون بالصحة، فالخير الواحد يكون عزاءً أمام المحنة الأخرى. أما هنا، في حالة لعازر، اجتمعت المصيبتان سوياً. ربما تقول إنك تستطيع أن ترينى شخصاً يعاني من المرض والفقر كليهما. ولكن ليس في عزلة ووحشة كالتي كان يعيش فيهما لعازر. فحتى لو لم يكن هذا الشخص مقيماً في منزله، فهو على الأقل يستطيع وسط الناس أن ينال رحمة من الذين ينظرونه، أما لعازر فكان مفتقراً لمن يحميه، مما جعل المصيبتين السابقتين أكثر شناعة وبؤساً. وهذا الافتقار للحماية في حد ذاته بدا أكثر قسوة بوضعه عند باب الرجل الغني. فإذا احتمل لعازر مثل هذه العذابات ولم يكترث له أحد وهو منطرح في صحراء غير مأهولة بالناس، لهان عليه بؤسه وشقاؤه. عندما لا يكون أحد موجوداً، سوف يقنع لعازر نفسه حتى رغماً عنه أن يحتمل ما يحدث له، ولكن لأنه لم ينل حتى الاهتمام العادى من أي إنسان برغم كونه ملقى وسط هذا الحشد من السكارى والمهرجين، شعر لعازر ببؤسه بأكثر حدة وتمثلت المحن أمامه بصورة أشنع. حقاً، إن قسوة المحن تكون أخف كثيراً عندما لا يُوجد أي إنسان يقدم المساعدة، عن أن يوجد الناس من حوله ويمتنعون عن تقديم يد العون له، وهذه كانت حالة لعازر في ذلك الوقت إذ لم يكن يُوجد من يعزّيه بكلمة أو يريحه بأي عمل، لا صديق ولا جار ولا نسيب، بل ولا حتى أي من الذين يشاهدونه، لأن كل أهل بيت ذلك الرجل الغني كانوا فاسدين.

أضف إلى ذلك، أن رؤية إنسان آخر يتنعم بحسن الحظ والرفاهية لابد وأنها كانت تضع على لعازر ثقلاً أكثر من الإحساس بشقائه، ليس بسبب أن لعازر كان حسوداً أو شريراً، بل لأننا كلنا بالطبيعة نحس بمصيبتنا بحدة أكبر عند مقارنتها برخاء الآخرين. وفي حالة الرجل الغني كان هناك أمر آخر من الممكن أن يلحق بلعازر ضرراً أعظم. كان لعازر يحس بمشاكله بقوة أكبر ليس فقط بمقارنة مصيبته الخاصة برخاء الرجل الغني، بل وأيضاً بتأمل أن الغني كان متيسراً في كل أمر برغم سلوكه بوحشية وبعدم إنسانية، في حين أنه هو، أي لعازر، كان يعاني من أقسى المحن برغم كونه فاضلاً وتقياً. بسبب ذلك احتمل المسكين حزناً لا عزاء له. فإذا كان الرجل الغني عادلاً، أو صالحاً، أو محترماً، أو متحلياً بكافة الفضائل، لما سبّب الحزن الفظيع للعازر، ولكن لأنه كان يعيش وسط الشرور، وبلغ قمة الشر، وكان يستعرض وحشيته هذه، ويعامل لعازر وكأنه عدوه، بل يمر بجانبه متحجراً لا يحس بأي خجل أو رحمة تجاهه، ومع كل ذلك كان يتمتع بمثل هذه البحبوحة والغنى: تأمل كيف كان كل ذلك جديراً بإغراق نفس الرجل المسكين كما في أمواج متلاحقة، تأمل ماذا كانت مشاعر لعازر وهو يرى المتطفلين المرائيين والعبيد والخدم يمرون أمامه، يدخلون ويخرجون، ويركضون في كل ناحية، صائحين، سكارى يدقون بأرجلهم، ويمارسون كافة أنواع اللهو والخلاعة الأخرى. وكأن لعازر المسكين وجد هناك لأجل هذا الغرض بعينه، أي ليكون شاهداً على رخاء الآخرين، فإذ به ينطرح هكذا عند الباب، وليس فيه من الحياة إلا ما يكفيه ليرى شقاءه الخاص، وليحتمل انكسار سفينته وهى في الميناء، وعذابات نفسه التى تشعر بالظمأ الشديد وهى على بُعد شبرٍ من مجرى المياه.

هل أذكر لكم شراً آخر بالإضافة إلى ذلك؟ إن لعازر لم يكن يرى

لعازر آخر أمامه. نحن من جانبنا، حتى لو أصابتنا محن كثيرة، نستطيع على الأقل أن ننال ما يكفي من الراحة والعزاء وذلك بالنظر إلى هذا المسكين لعازر. إن وجود رفقاء لنا في عذاباتنا، ما إذا كان ذلك حقيقة أو في القصص، يجلب لنا عزاءً كبيراً في حزننا. أما لعازر فلم يكن يرى أحداً آخر يعاني من نفس المحن التي يعانيها هو، حقاً، لم يكن حتى في وسعه أن يسمع عن أي إنسان ممن سبقوه احتمل بهذا المقدار. كان ذلك كافياً لإظلام نفس أي مسكين. ومن الممكن أيضاً إضافة شر آخر على ما سبق، وهو أنه لم يكن في وسع لعازر أن يعزي نفسه بالتفكير في القيامة، إنما كان منحصراً فيما يحدث له في الحياة الحاضرة، ذلك أن لعازر كان من بين الذين عاشوا قبل عصر النعمة. أما الآن فبالرغم من كثرة معرفتنا بالله، والرجاء الصالح في القيامة، وبرغم معرفتنا بالعقوبة التي تنتظر الخطاة بعد الموت، وبالمكافأة المعدة للأبرار، إلا أن كل ذلك ربما لا يرفع من معنويات بعض الناس الذين يعانون من الشقاء، فماذا كانت حالة لعازر إذاً وهو محروم من كل هذه المشجعات؟ بل ولم يكن في وسع لعازر أن يصل إلى هذه المفاهيم، لأن الوقت لم يكن قد حان بعد لمثل هذه التعاليم.

كان هناك شيء آخر بالإضافة إلى هذه الشرور، وهو أن سمعة لعازر كان يُفترى عليها من الأغبياء. حيث أن أغلب الناس عندما يرون إنساناً يعاني من الجوع، ومن الأمراض المزمنة، ومن المحن والمصائب الشنيعة، لا يسمحون له حتى بالسمعة الطيبة، إنما يحكمون على حياته من المشاكل التي يواجهها، ويعتقدون أنه بكل تأكيد يعيش في هذا الشقاء بسبب شروره. وهم يقولون بعضهم لبعض أشياء أخرى كثيرة مثل هذه، وبرغم حماقة هذه الأقوال فهم مع ذلك يتحدثون بها: فيقولون مثلاً، إذا كان هذا الإنسان عزيزاً لدى الله، لما تركه يعاني من الفقر ومن بقية

المشاكل. وهذا ما حدث لأيوب وبولس. فلقد قيل لأيوب: "إن امتحن أحد كلمة معك فهل تستاء؟ ولكن مَنْ يستطيع الامتناع عن الكلام؟ ها أنت قد أرشدت كثيرين وشددت أيادى مرتخية. قد أقام كلامك العاثر وثبّتّ الركب المرتعشة. والآن إذ جاء عليك ضجرت إذ مسّك ارتعت. أليست تقواك في معتمدك ورجاؤك كمال طرقك؟" (أي ٤: ٢-٦) هذا الكلام يعني ما يلي: "إذا كنت فعلت ما هو صالح لما عانيت مما عانيت، إنما أنت تدفع عقوبة خطاياك وتعدياتك". وهذا الكلام هو الذى سبّب لأيوب حزناً إلى أقصى درجة. ولقد قال البرابرة نفس الكلام عن بولس: إذ عندما رأوا الأفعى معلقة بيده، لم يتخيلوا أي شيء صالح بالنسبة له، إنما ظنوه ممن ارتكبوا أقصى الشرور. وهذا يتضح مما قالوه: "لابد أن هذا الإنسان قاتل لم يدعه العدل يحيا ولو نجا من البحر" (أع ٢٨: ٤). نحن أيضاً كثيراً ما نُحدث مثل هذا الضجيج غير العادى ونتحدث بمثل هذه الكلمات.

برغم كل ذلك، وبرغم أن الأمواج كانت عنيفة ومجتمعة، إلا أن سفينة لعازر لم تغرق، بل عضّد لعازر نفسه بالحكمة مثل الندى الذي ينعش باستمرار إنساناً ملقى وسط الأتون. لم يقل لعازر لنفسه أي شيء من الأشياء التي ربما يتحدث بها الكثيرون الآن، فلم يقل مثلاً إن هذا الغني كان ينبغي أن ينال العقوبة والتوبيخ عند مفارقته هذا العالم في مقابل تنعمه وهنائه هنا[1] ولم يقل أيضاً إنه إذا تمتع الغني في الآخرة بنفس الأمجاد التي يتمتع بها على الأرض لأصاب نصيبين بدون تعب[2]. ألا تستخدمون أنتم يا عامة الشعب هذه التعبيرات في الأسواق، وتتحدثون بلغة السباقات والمسارح داخل الكنيسة؟ أنا أخجل بالفعل، وأستحي من ذكر هذه التعبيرات أمامكم، إلا أن الضرورة تقتضي ذلك، لكي أحرركم

---

(١) ONE FOR ONE: أي واحد مقابل واحد.

(٢) TWO FOR NOTHING: أي اثنان مقابل لا شيء.

من الخجل والضرر الناشئين عن مثل هذه الأقاويل. كثيرون يقولون هذا الكلام على سبيل الدعابة، ولكن حتى هذا إنما هو من شأن طرق إبليس الشريرة، الذي يريد إدخال هذا التعليم الفاسد في حياتنا تحت قناع التعبيرات الفكاهية. كثيرون يستخدمون هذه الجمل باستمرار في أعمالهم، وفي السوق، وفي بيوتهم: وهذه هى علامة منتهى عدم الإيمان، والجنون الحقيقي، والميول الصبيانية. إن القول، "لو أن الأشرار يُعاقبون عند مغادرتهم العالم"، وعدم الاقتناع الكامل بأنهم سوف يُعاقبون بكل تأكيد، هو من صفات غير المؤمنين والمتشككين. إن الاعتقاد بأن الأشرار سوف يتمتعون مع الأبرار بنفس المكافأة لهو قمة الغباء والحماقة.

ماذا تقولون؟ أخبروني. أتقولون إن الرجل الغني لو مات ونال عقوبته في الآخرة، سوف يكون ذلك مقابل تنعمه على الأرض [ONE FOR ONE] ؟ كيف تحسبون ذلك؟ كم من السنوات يتمتع الغني بأمواله على الأرض؟ أنقول مئة سنة؟ أود أن أقول مائتان أو ثلاث مئة أو ضعف ذلك، أو إذا أردتم، فلنقل حتى ألف سنة [ولو أن ذلك مستحيل، لأنه مكتوب: "أيام سنينا هى سبعون سنة، وإن كانت مع القوة فثمانون سنة" (مز ٩٠: ١٠)] – لكن دعنا نقول حتى ألف سنة. أظن أنكم لا تستطيعون أن تروني حياة بدون نهاية هنا على الأرض، أي ، بدون حدود مثل حياة الأبرار في الآخرة، هل تستطيعون؟ أخبروني، إذا رأى إنسان عبر مئة سنة حلماً حلواً في ليلة واحدة، واستمتع برخاء عظيم في نومه، هل تستطيعون أن تقولوا في هذه الحالة "واحد مقابل واحد" [ONE FOR ONE]، وتجعلوا ليلة واحدة من تلك الأحلام تساوي مئة عام؟ أنتم لا تستطيعون ذلك. هكذا يجب أن تفتكروا بنفس الطريقة عن الحياة الآتية. ما يمثله حلم واحد لمائة سنة، هكذا الحياة الحاضرة بالنسبة للحياة الأبدية، أو بالأحرى إن الفرق أعظم من ذلك بكثير جداً. مثل

نقطة ماء واحدة صغيرة أمام بحر لا حدود له، هكذا ألف سنة هنا أمام ذلك المجد والسعادة في الأبدية. ماذا بوسعنا أن نقول أكثر من أنها حياة بدون حدود ولا نهاية لها، وكما أن الأحلام تختلف عن الحقيقة الواقعية، هكذا تختلف حالتنا هنا عن حالتنا بعد الموت.

بجانب ذلك، وحتى قبل العقاب الآتي في الآخرة، فإن الذين يرتكبون الشرور ويعيشون في الخطيئة يُعاقبون هنا في هذه الحياة أيضاً. فلا تخبروني بسذاجة إن ذلك الغني يستمتع بالموائد والأطعمة الباهظة الثمن، ويلبس الحرير، ويختال في السوق وسط حشد من العبيد والخدم: كلا بل اكشفوا لي ضميره، وسوف ترون داخله حشداً من الخطايا والخوف المستمر والاهتياج والتشويش، وعقله يقف أمام ضميره كما يقف المتهم أمام كرسي القضاء في المحكمة، فيكون ضميره قاضياً يقدم الحجج والاتهامات وكأنها محاكمة علنية، ويعلق الذهن ويعذبه على خطاياه، والله وحده هو الشاهد على هذه المحاكمة الداخلية. فالرجل الزاني، مثلاً، حتى لو كان في غاية الثراء، وحتى لو لم يتهمه أحد، لا يكف عن إدانة واتهام نفسه من الداخل. إن اللذة قصيرة، أما العذاب فهو طويل جداً، حيث الحزن والخوف والهلع في كل مكان، والشك والنزاع المرير. فمثل هذا الرجل يرهب الممرات الضيقة، ويرتعد حتى من الظل، ومن خدامه وعبيده، ومن الذين يعرفون أفعاله بل وحتى من الذين لا يعرفون شيئاً، وأيضاً من نفس المرأة التي أخطأ معها، ومن زوجها الذي أهانه. هذا الرجل يسير هنا وهناك يحمل في داخله من يتهمه بمرارة: أي ضميره، وإذ يدين نفسه لا يعرف الطريق إلى الراحة ولو قليلاً. فعلى سريره، وعلى المائدة، وفي السوق، وفي البيت، نهاراً وليلاً، حتى في أحلامه يرى على الدوام صور خطيئته. وهو يعيش حياة قايين، نائحاً مرتعباً على الأرض حتى بدون أن يعلم أحد. في داخله تشتعل النار بشدة

باستمرار. نفس الأمر يحدث مع الذين يرتكبون السرقة والاحتيال، ومع السكارى، وباختصار مع كل من يحيا في الخطيئة حتى ولو لم نسعَ وراء الفضيلة، فسوف نعاني أيضاً من الحزن والكرب الناتجين عن ذلك، وإذا سعينا وراء الشر، فسوف نحس أيضاً بالحزن والكرب عندما نكف عن لذة الخطيئة لذلك لا ينبغي أن نقول عن الشرير الذي يتمتع بالثراء هنا على الأرض، والبار الذي يكافأ في الآخرة أن "هذا يساوي ذاك"[١] [ONE MAKES ONE]، إنما نقول "اثنان في مقابل لا شيء" [TWO MAKE NOTHING]. وذلك أن البار يجد متعة عظيمة هنا في الحياة الحاضرة وفي الحياة الآتية أيضاً، أما الشرير والجشع فيُعاقب هنا وفي الآخرة. فهو يُعاقب هنا بتوقع التوبيخ والعقوبة في الآخرة، وبالشك في كل إنسان بصورة خاطئة، وبارتكاب الخطيئة ذاتها وإفساد نفسه. أما بعد مغادرة هذا العالم فهو يجازي بعقوبات لا تحتمل. في المقابل، وبالمقارنة، حتى لو عانى الأبرار هنا عذابات ومحناً لا حصر لها، فهم ينتعشون ويتقوون بالرجاء الصالح، وينالون لذة خالصة، مضمونة، ودائمة، وفي الحياة الأبدية سوف تكون خيرات كثيرة من نصيبهم، تماماً مثل لعازر. لا تقولوا لي إنه كان مصاباً بالقروح، إنما تأملوا في أن له نفساً من الداخل أثمن من أي ذهب - أو بالحري ليست نفسه وحدها، بل وأيضاً جسده، إذ أن فضيلة الجسد لا تكمن في امتلاء الجسم والعافية إنما في القدرة على احتمال تجارب كثيرة قاسية مثل هذه. إن الإنسان لا يكون منفراً إذا كان جسده مصاباً بمثل هذه القروح، إنما إذا كانت نفسه هى المصابة بقروح كثيرة وهو لا يهتم بذلك. هكذا كان حال ذلك الرجل الغني، لقد كان مليئا بالقروح من الداخل. وكما أن

---

[١] أي أن نعيم هذا يوازي نعيم ذاك.

الكلاب لحست قروح لعازر المسكين، هكذا لحســت الشــياطين خطايــا الرجل الغني، وتماماً كما أن الرجل المسكين عاش فــي عــوز شــديد للغذاء، هكذا عاش الغني في عوز كامل لكل أنواع الفضيلة.

وإذ تتضح كل هذه الأمور أمامنا، فلنكن حكماء. ودعونا لا نقول إذا كان الله يحب فلاناً، لما سمح له بالفقر. ذلك أن هذه الحقيقة في حد ذاتها هى أكبر دليل على محبة الله: "لأن الذي يحبه الرب يؤدبه وكأب بــابن يُسرّ به... ويجلد كل ابن يقبله" (أم ٣:١٢، عب ١٢:٦). ومكتوب فــي موضع آخر: "يا ابني إذا تقدمت لخدمة الرب أعدد نفسك للتجربة، وضع قلبك واحتمل" (سيراخ ٢:١-٢). دعونا، يا أحبائي، نرفض من بيننا هذه الأفكار الطائشة وهذه التعبيرات الشائعة المبتذلة. مكتــوب: "لا تخــرج كلمة رديئة من أفواهكم، ولا القباحة ولا كلام الســفاهة والهــزل" (أف ٤:٢٩، ٥:٤). لا يكفي أن لا نتفوه نحن بهذه الأشياء، بــل وإذا رأينــا آخرين يتفوهون بها، فلنسكتهم، ولنقاومهم بشدة، ولنخْرِس ألسنتهم القذرة. أخبروني، هل إذا رأيتم رئيس عصابة من اللصــوص يقطــع الطــرق، ويكمن للمسافرين، ويسرق من الحقول، مخبئــاً الــذهب والفضــة فــي الكهوف والجحور، حابساً في حظيرته قطعاناً كبيــرة مــن الحيوانــات، ومقتنياً العديد من الملابس والعبيد من قطعه للطــرق، أخبرونــي، هــل تدعون ذلك الرجل محظوظاً وسعيداً بسبب ثروته هذه، أم تدعونه ســيئ الحظ وتعيساً بسبب العقاب الذي ينتظره؟ صحيح أنه لم يُعتقل بعد، ولــم يُسلم للقاضي، ولم يُلق به بعد في السجن، ولا يوجد الآن من يوجّه لــه التهمة، وقضيته لم تناقش بعد، بل وهو يأكل ويشرب بشراهة لا حد لها ويتمتع بثراء عظيم. ولكن برغم كل ذلــك فإننــا لا نــدعوه ســعيداً أو محظوظاً بسبب خيراته المنظورة في الوقت الحاضر، إنما ندعوه بائســاً وشقياً بسبب العذابات التي سوف تحل به في المستقبل.

هكذا ينبغي أن تفكروا بخصوص الأغنياء الجشعين. فهـم يمثلـون نوعاً من اللصوص الذين يكمنون في الطرقات، ويسـلبون المسـافرين، ويخبئون أموال الآخرين في بيوتهم وكأنها كهوف وجحـور. لـذلك لا يجب أن ندعوهم سعداء ومحظوظين بسبب ما يمتلكونه، إنمـا نـدعوهم بؤساء وتعساء بسبب ما سوف يحل بهم، بسبب تلك المحاكمة المرعبـة، بسبب الحكم الذي سوف يصدر ضدهم بدون رحمـة، وبسـبب الظلمـة الخارجية التي تنتظرهم. بالفعل، كثيراً ما يستطيع اللصوص الهروب من أيدى الناس أما من يد الله فلا يمكن لأحد أن يفلت من دينونته، بـل كـل الذين يعيشون بالاحتيال والسرقة لابد وأنهم بكل تأكيـد يجلبـون علـى أنفسهم تلك العقوبة الأبدية التي بدون نهاية، تماماً مثل هذا الرجل الغني. ينبغي علينا إذاً أن نصلي لأجل أنفسنا ولأجل أعدائنا لكي نتجنـب تلـك الحياة بكل غناها وبحبوحتها الملعونة بكل هذه الأفكـار فـي أذهـانكم، دعونا يا أحبائي، نسمى الأتقياء وأصحاب الفضائل وليس الأغنيـاء هـم المحظوظين والسعداء، ودعونا لا نسمي الفقراء تعساء إنمـا الأشـرار. دعونا لا نفكر في الوضع الحالي، بـل فـي مـا سـوف يكـون فـي المستقبل[1]. دعونا لا نفحص الملابس الخارجية إنما ضمير كل إنسـان. ودعونا نسعى وراء الفضيلة والفرح الناتجين عن الأعمال البارة التقيـة، ودعونا، أغنياء وفقراء، نتشبه بلعازر. ذلك أن هذا الإنسان لـم يحتمـل فقط اختباراً واحداً أو اثنين أو ثلاثة في الفضيلة، إنما اختبارات عديـدة جداً – أقصد أنه كان فقيراً، وكان مريضاً، ولم يكن له من يساعده. كان لعازر ملقى في بيت وكان هذا البيت قادراً على حل كل مشاكله، إلا أنه لم يتلق أية كلمة تعزيه أو تريحه. كان لعازر يرى الرجل الـذي أهملـه

---

[1] قارن كلمات سولون: "لا تدعُ إنساناً سعيداً طالما كان على قيد الحياة".

يتمتع بمثل هذا الرخاء، وليس هذا فقط بل وكان يعيش وسط الشرور دون أن يعاني من أية محنة أو سوء حظ . كذلك كان لعازر لا يرى لعازر آخر مثله[١]، ولم يستطع أن يعزي نفسه ويشجعها بأية فلسفة في القيامة. ثم بجانب المصائب التي ذكرتها، ربما أساء بعض الناس الظن فيه بسبب المحن التي يجتازها. ليس ليومين أو ثلاثة بل طوال حياته كلها كان لعازر يرى نفسه في هذا الوضع والرجل الغني في الوضع المضاد. فأي عذر لنا، إذا كان هذا الإنسان قد احتمل كل المصائب مجتمعة بشجاعة فائقة، ونحن لا نحتمل حتى نصفها؟ أنتم لا تستطيعون بكل تأكيد أن تروني أو أن تذكروا لي إنساناً آخر احتمل بهذا المقدار مثل هذه المصائب مجتمعة. لأجل ذلك وضعه المسيح أمامنا كمثال، حتى مهما قابلتنا من المشاكل، عندما نرى في لعازر معاناة أعظم بكثير، نقتني لأنفسنا من حكمته وصبره ما يكفينا من العزاء والراحة. لعازر يقف أمام العالم كله كمعلم لا مثيل له، وأمام كل من يعاني من أية ضيقات مهما كانت، مقدما ذاته مثالا للجميع، ومتفوقاً على الجميع في المحن والمشاكل التي اجتازها بنفسه.

لأجل كل ذلك فلنشكر الرب الذي يحب جنس البشر. ولنجعل من هذه القصة عضداً لنا. دعونا نتحدث عن لعازر باستمرار في مجالسنا، في البيت، في السوق، وفي كل مكان. دعونا نفحص بدقة كافة الكنوز المتاحة في هذا المثل، لكيما نجتاز نحن وسط الاضطرابات الحالية بدون حزن ونصل إلى الخيرات الآتية في المستقبل: التي ياليتنا نصير جميعنا مستحقين لها بالنعمة والمحبة التي لربنا يسوع المسيح، الذي له مع الآب والروح القدس المجد والكرامة والسجود الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

---

[١] أي لم يكن يرى فقراء آخرين حوله مما يخفف من معاناته.

العظة الثانية للقديس يوحنا ذهبى الفم على مثل " لعازر والرجل الغنى"

لقد تأثرت بإرادتكم الحسنة عندما ألقيت العظة السابقة عن لعازر، لأنكم استحسنتم صبر الرجل المسكين وشجبتم قساوة ووحشية الرجل الغني. وهذه إشارات لا يُستهان بها إلى ميولكم التقية الفاضلة. لأننا حتى ولو لم نسعَ وراء الفضيلة، وإنما مجّدناها فقط على الأقل، فمن المحتمل أن نصل إليها، وكذلك أيضا لو لم نتجنب الشر، ولكننا على الأقل أدنّاه وشجبناه، فمن المحتمل أن ننجو منه. لأجل ذلك، وبما أنكم استمعتم للعظة الماضية باستمتاع واستحسان، انصتوا، ها أنا ألقي عليكم تكملتها. لقد رأيتم لعازر عند باب الرجل الغني، انظروه اليوم في حضن إبراهيم. لقد رأيتموه والكلاب تلحسه؛ انظروه والملائكة تحمله منتصراً. هناك نظرتموه وهو يعيش في الفقر؛ والآن انظروه يعيش في الرخاء والنعيم. لقد رأيتموه وهو جائع؛ انظروه وسط الخير الوفير. لقد رأيتموه يجاهد في المعركة؛ انظروه مكللاً بإكليل النصرة. لقد رأيتم عذاباته؛ انظروا الآن مكافأته، يا أيها الأغنياء ويا أيها الفقراء: الأغنياء، لكيما لا تفكروا أن الثروة بدون الفضيلة تساوي شيئاً؛ والفقراء، لكيما لا تفكروا أن الفقر شر من الشرور. فإذا كان لعازر لم يتذمر وهو فقير، فأي عذر لك يا مَنْ تتذمر وأنت غني؟ وإذا كان لعازر شكر وهو جائع وتحوطه مشاكل كثيرة، فأي عذر يقدمه مَنْ لا يحاولون الاقتراب من نفس هذه الفضيلة وهم يتمتعون بالوفرة والرخاء ؟ كذلك بالمثل، أي عذر يقدمه الفقير الذي يتذمر ويشتكي لكونه يشحذ لكي يعيش، في حين أن لعازر الذي كان

يعيش باستمرار في جوع، وفقر ، ووحدة، ومرض في بيت ذلك الغني، مُهملاً من الجميع، دون أن يشاهد شخصاً آخر يعاني من عذابات كعذاباته، أظهر مع كل ذلك مثل هذه الحكمة السامية؟

دعونا نتعلم من هذا الرجل أن لا نسمي الأغنياء محظوظين ولا الفقراء تعساء. بل بالأحرى، إذا أردنا أن نقول الحقيقة، فإن الرجل الغني ليس هو مَنْ يجمع ممتلكات كثيرة إنما هو مَنْ يحتاج إلى مقتنيات قليلة، والرجل الفقير ليس هو مَنْ لا يملك شيئاً إنما مَنْ له رغبات كثيرة [١]. يجب أن نعتبر أن هذا هو تعريف الفقر والغنى. فإذا رأيت إنساناً يطمع في أشياء كثيرة، يجب أن تعتبره أفقر الفقراء، حتى ولو اقتنى أموال كافة الناس. وإذا، رأيت في المقابل إنساناً ليست له حاجة إلا إلى القليل، يجب أن تعتبره أغنى الأغنياء، حتى ولو كان لا يملك شيئاً. ذلك أننا اعتدنا أن نحكم على الفقر والغنى من ميول الذهن، وليس من مقدار المادة التي يملكها كل واحد. وكما أننا لا نستطيع أن نقول عن إنسان إنه يتمتع بصحة كاملة وهو يشعر على الدوام بالظمأ، حتى ولو توفرت المياة بقربه بكثرة، ولو سكن بجوار الأنهار والينابيع (إذ ما فائدة كثرة المياه حين يظل الظمأ كما هو دون أن يشعر المرء بارتواء؟)، دعونا نقول نفس الشيء في حالة الأثرياء: فيجب أن لا نعتبر هؤلاء الناس أصحاء وهو يتطلعون بظمأ دائم لممتلكات الآخرين؛ يجب أن لا نعتبرهم يتمتعون بأية وفرة أو رخاء. ذلك أن الإنسان إذا لم يستطع أن يسيطر على جشعه، فكيف يعيش في رغد من العيش حتى ولو اقتنى ممتلكات كافة الناس. أما الذين يكتفون بما يتوفر لديهم، ويسرون بممتلكاتهم الخاصة، ولا يتطلعون بأعينهم إلى ممتلكات الغير، يجب أن نعتبرهم

---

[١] هذه الفكرة نجدها أيضاً في الفلسفة الأخلاقية اليونانية لدى الوثنيين.

أغنى الناس حتى ولو كانوا أفقرهم. ذلك أن كل مَنْ لا يشـعر باحتيـاج لممتلكات الآخرين إنما هو سعيد ومكتف بما عنده هو أكثر الناس رغـداً في المعيشة. ولكن إذا وافقتم، فلنرجع إلى موضوعنا.

"فمـات المسـكين" يقـول المسـيح "وحملتـه الملائكـة" (لو١٦:٢٢) عند هذه النقطة أود أن أنتزع من أنفسـكم مرضـاً خبيثـاً. كثيرون من الناس البسطاء يعتقدون أن أرواح (souls) الذين يموتـون بميتة قاسية تصير شياطين. هذا مستحيل، مستحيل تماماً. ليسـت أنفـس (souls) الذين يموتون بعنف هى التي تصير شياطين، إنما أنفس الـذين يعيشون فى الخطيئة. إن طبيعتهم ككائنات بشرية لا تتغير، إنما طريقـة حياتهم تشبه شرور الشياطين. ولقد أوضح المسيح ذلك بالفعل في إشارته لليهود عندما قال: "أنتم أولاد إبليس". لقد دعاهم أولاد إبليس، ليس لأنهم تحوّلوا إلى طبيعة إبليس، إنما لأنهم يعملون أعمال إبليس. ولذلك أضاف المسيح: "وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا" (يو٨:٤٤). وبالمثـل قـال يوحنا المعمدان: "يا أولاد الأفاعي مَنْ أراكم أن تهربـوا مـن الغضـب الآتي؟ فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنـا إبراهيم أباً" (مت ٣:٧-٩). إذ كثيراً ما تتحدث الأسـفار الإلهيـة عـن قوانين القرابة والنسب، ولا تعني العلاقة بحسب الطبيعة، إنمـا بحسـب الفضيلة أو الشر، فالأسفار الإلهية تدعو الإنسان ابناً أو أخاً لمن يشاركه في الصفات والشخصية.

ولكن لماذا أدخل إبليس هذا التعليم الشرير؟ لقـد حـاول أن يلغـي ويطمس مجد الشهداء. إذ بما أنهم يموتون بميتات قاسية، أراد إبليس أن ينشر شكوكاً سيئة حولهم. إلا أنه لم يقوَ علـى ذلـك؛ لأن الشـهداء لا يزالون يحتفظون بالمجد اللائق بهم. وعوضاً عن ذلك وصل إبليس إلـى

أمر آخر أكثر بشاعة وحزناً، إذ أنه أقنع بتعاليمه هذه السحرة الذين يخدمونه بأن يذبحوا أطفالاً كثيرين على أمل أن يصيروا شياطين يخدمونهم في المقابل. ولكن هذا مستحيل، مستحيل تماماً. ثم ماذا عن حقيقة أن الشياطين تقول أحياناً، "أنا روح الراهب فلان أو فلان؟ " أنا لا أصدق ذلك لسبب واحد هو أن الشياطين هى التي تنطق بهذا الكلام، لأنهم يخدعون من ينصت إليهم. لأجل ذلك أسكتهم بولس برغم أنهم كانوا ينطقون بالحقيقة، وذلك لئلا يستغلوا الفرصة ويخلطوا الكذب بالحقيقة وبذلك يصيرون جديرين بالثقة. إذ عندما قالت الشياطين: "هؤلاء الناس هم عبيد الله العلي الذين ينادون لكم بطريق الخلاص" (أع ١٦:١٦،١٧)، ضجر بولس واحتد على روح العرافة ووبخه وأمره بالخروج. ولكن ما هو وجه الشر فيما قالته "هؤلاء الناس هم عبيد الله الحي"؟ ولكن بما أن كثيرين من البسطاء لا يعرفون دائماً كيف يميزون بين ما تنطق به الشياطين، أخرسهم بولس توًّا لئلا يصدقهم أحد. وكأنه يقول للشيطان: "أنت بلا كرامة، وليس لك الحق أن تتكلم، اخرس، اسكت. أنت ليس لك الحق أن تعظ؛ هذا الحق يختص به الرسل. فلماذا تنسب لنفسك ما هو ليس لك؟ اسكت، أنت فقدت مجدك وكرامتك". ولقد فعل المسيح أيضاً شيئاً يشبه ذلك. فلما قالت له الشياطين: "نحن نعرف مَنْ أنت" (مر ١:٢٤ ، لو ٤:٣٤)، انتهرهم بشدة ، لكي يعلمنا أن لا نثق في الشيطان إطلاقاً، حتى لو قال لنا ما هو نافع. فلنتعلم هذا الأمر، ولا نعد نثق في أي شيطان مهما كان الأمر، بل وحتى عندما ينطق بشيء مفيد وصحيح، دعنا نهرب منه ونتجنبه. نحن نستطيع أن نتعلم التعاليم المفيدة والصحيحة بكل دقة من الأسفار الإلهية وليس من الشياطين. ولكي نعرف أنه يستحيل على النفس التي تفارق جسدها أن تسقط تحت طغيان الشياطين، فلنسمع ما يقوله بولس: "لأن الذي مات قد تبرأ من

الخطيئة" (رو٦:٧)؛ بمعنى ، أنه لا يعود يخطئ بعد ذلك. فإذا كان إبليس عاجزاً عن استعمال القوة مع النفس أثناء أقامتها في الجسد، فهو بالتأكيد لا يستطيع ذلك أيضاً عندما تفارق النفس الجسدَ. ربما يسأل أحدكم: "فكيف يخطئ الناس، إذا كان إبليس لا يغصبهم على ذلك؟" أقول إنهم يخطئون بإرادتهم وعن قصد، وهم يسلمون أنفسهم لإبليس ليس عن قهر أو إجبار. وهذا يتضح من كل الذين انتصروا على مكائده. مثلاً، لم يقوَ إبليس على أن يدفع أيوب للتجديف ولو بكلمة رغم محاولاته المستميتة.

يتضح من ذلك أننا نملك القوة على أن نثق أو لا نثق في خداعاته وخططه، ونحن لا نخضع لأي ضرورة أو قهر من جانبه. ليس فقط مما قلته بل ومن نفس المثل الذي نناقشه الآن يتضح أيضاً أن الأنفس عندما تغادر أجسادها، لا تبقى هنا، إنما تُقتاد بعيداً بسرعة. اسمع ما يقول المسيح: "فمات المسكين وحملته الملائكة" (لو١٦:٢٢). ليس فقط أرواح الأبرار بل وأيضاً أرواح الذين عاشوا في الشر تقتاد بعيداً بعد الموت؛ وهذا يتضح مما قيل عن رجل غني آخر. إذ عندما أخصبت كورته فكر في نفسه قائلاً: "ماذا أعمل؟ ... أهدم مخازني وأبني أعظم منها" (لو١٢:١٦-١٨). لا يوجد ما هو أشقى من هذا السلوك. وفي الحقيقة هدم الغني مخازنه؛ إذ أن المخازن المحصنة ليس لها أسوار إنما هي بطون الفقراء. فمن أهمل هذه المخازن لا حاجة له أن يقلق بشأن الأسوار الحجرية. ماذا قال له الله؟ "يا غبي! هذه الليلة تطلب نفسك منك". أرأيتم، هنا قال: "وحملته الملائكه"، وهناك قال: "تُطلبَ نفسك" (أو "يطلبون نفسك")؛ فالواحد اقتيد كأسير، والآخر حُملَ على الأكتاف كمنتصر. إذ تماماً كما يحدث في حلبة المصارعة عندما يتلقى المصارع

جراحات عديدة ويُخضّب بالدم، ثم يفوز بإكليل النصرة، يحييه الواقفون أمام الحلبة بالصراخ الشديد ويقتادونه إلى البيت بالتصفيق والتهليل والفرح، هكذا حملت الملائكة لعازر إلى بعيد، أما ذلك الرجل الآخر فإن نفسه طلبت منه بواسطة قوات مرعبة، ربما أرسلت إلى هذا الغرض خصيصاً. ذلك أن النفس لا تصعد تلقائياً من ذاتها إلى ذلك العالم الآخر، لأن هذا أيضاً مستحيل. فإذا كنا نحتاج إلى مرشد في تنقلنا من مدينة إلى أخرى، فكم بالأكثر تحتاج النفس التي تغادر جسدها إلى من يقودها نحو الحياة الآتية. لأجل ذلك كثيراً ما تصعد النفس ثم تنحدر مرة أخرى نحو الهاوية، وترتعد خوفاً، وهى على وشك الخروج من الجسد. ذلك أن إحساسنا ينخسنا على الدوام، وبالأخص في ذلك الوقت عندما نكون على وشك أن نُقتاد إلى فحص أعمالنا في تلك المحكمة الرهيبة. عندئذ، إذا ارتكب أحد السرقة أو الطمع، أو لعن إنساناً أو أبغض إنساناً بدون سبب، أو ارتكب أية خطيئة أخرى، تتجمع من جديد خطاياه كلها وتقف أمام عينيه لتنخس ضميره بشدة. تماماً كما أن الذين في السجون، يعيشون في اكتئاب وحزن طوال الوقت وبالأخص في ذلك اليوم الذي يُقتادون فيه إلى القاضي ليقفوا أمام المحكمة ويسمعوا صوت القاضي من الداخل، فيرتعدون هلعاً ولا يكون حالهم أفضل من حال الموتى؛ هكذا أيضاً النفس تكون في قلق وحزن رهيب في لحظة ارتكابها للخطيئة، بل ويزداد هلعها جداً عندما تكون على وشك أن تُقتاد للخروج من هذا العالم.

أتنصتون لما أقول في صمت؟ يسعدني كثيراً صمتكم أكثر من إطرائكم واستحسانكم لما أقول؛ لأن الإطراء والتمجيد يجعلانني أكثر شهرة، أما هذا الصمت فيجعلكم أكثر فضيلة وتقوى. أنا أعرف أن ما

أقوله مؤلم، ولكني لا أستطيع أن أعبّر لكم عن عظم الفائدة التي يحملها هذا الكلام. إذا كان ذلك الرجل الغني وجد مَنْ يعطيه مثل هذه النصائح، بدلاً من المنافقين الذين لا يقترحون إلا ما يريد سماعه، والذين استدرجوه إلى رفاهية العيش، لما سقط الغني في ذلك الجحيم، ولما عانى من عذابات لا تُحتمل، وتاب بعد فوات الأوان؛ ولكن بما أن الجميع كانوا يتحدثون بما يسره، سلموه إلى النار. أود لو استطعنا على الدوام وباستمرار أن نعظ هكذا ونتحدث عن الجحيم. إذ يقول الكتاب المقدس: "في جميع أعمالك تذكر أواخرك فلن تخطئ إلى الدهر" (سيراخ ٧:٣٦). وأيضاً: "هيّئْ عملك للرحيل، وأعد كل شيء للطريق" (أم ٢٤:٢٧– ترجمة مختلفة). وإذا كنت قد سرقت أي شيء من إنسان آخر، أعده إليه، وقل مثل زكا: "أرد أربعة أضعاف ما سرقت" (لو ١٩:٨). وإذا كنت قد خدعت إنساناً في أي شيء بالنفاق، أو إذا كنت أبغضت إنساناً ما، تصالح معه قبل الدينونة. سوّ كل أمورك هنا، حتى تقترب من تلك المنصة بدون ديون أو مسئوليات.

طالما كنا هنا على قيد الحياة فأمامنا فرص جيدة؛ ولكن عندما نرحل إلى ذلك المكان، لا يعود لنا أي حق في التوبة، ولا لغسل أعمالنا السيئة. لهذا السبب يجب أن نجعل أنفسنا مستعدين على الدوام لمغادرة هذا العالم. ماذا يكون حالنا إذا استدعانا الله إليه في هذا المساء؟ أو غداً؟ إن المستقبل غير معروف، فلابد أن نجاهد باستمرار في المعركة ونعد أنفسنا للرحيل، تماماً كما كان لعازر هذا صبوراً في احتماله. لأجل هذا السبب حُمل لعازر بمثل هذا المجد العظيم. الرجل الغني أيضاً مات ودُفن، تماماً كما كانت نفسه من قبل مدفونة في جسده مثل القبر، ذلك أن الرجل الغني بتغليل الجسد بالسكر والشراهة كما بقيود، جعله بدون فائدة

وميتاً[1]. لا تعبروا، يا أحبائي، هكـذا ببسـاطة علـى جملـة "ودُفـن" (لو ١٦:٢٢) يجب أن تفهمـوا منهـا أن الموائـد المرصـعة بالفضـة، والأرائك، والسجاجيد، والمنسوجات، وكـل أنـواع الأثـاث الأخـرى، والزيوت المعطرة، والروائح، والكميات الكبيرة من الخمـور المعتقـة، وأنواع الأطعمة المختلفة، والأطباق الثمينة، والطبـاخين، والمنـافقين، والحرس، والخدم، وكل الأشياء الأخرى التي كان يتباهى بهـا الرجـل الغني انتهت واختفت. الآن صار كل شيء رماداً، الكـل صـار ترابـاً ورماداً، ولم يتبق إلا الندب والعويل، إذ ليس في مقـدرة أي إنسـان أن يقدم له يد المعونة بعد ذلك، أو أن يسترجع النفس التي خرجـت. آنئـذ تـُختبر قوة الذهب، وكل أنواع الغِنىَ الزائد عن الحد. فمن وسط هـذا الحشد من الحاضرين اقتيد الرجل الغني عارياً ووحيداً، لأنه لم يسـتطع أن يأخذ معه أي شيء من الخيرات الوفيرة التي كانت عنده؛ بـل اُقتيـد الغني بدون أي رفيق أو مرشد. ولم يستطع أحد ممن كانوا يخدمونه، أو كانوا يساعدونه، أن ينقذه من العذاب والعقوبة. إنما اقتيد الغني بعيداً عن كل أتباعه هؤلاء، ليتحمل وحده العقاب غير المحتمل. حقاً، "كـل جسـد عشب، وكل مجد البشر كزهر الحقل. يبس العشب، ذبل الزهر؛ أما كلمة الرب فباقية إلى الأبد" (إش ٤٠:٦-٨ بحسب السبعينية). جـاء المـوت وأباد كل تلك الرفاهيات؛ وأخذ الرجل الغني مثل الأسير واقتاده ورأسـه مدلاة إلى أسفل، يئن بخجل، غير قادر على الكلام، يرتعد خائفاً وكأنـه كان يتمتع بذلك الرخاء كله في حلم. وأخيراً صار الرجل الغني هو الذي يتوسل للعازر المسكين ويرجوه أن يطعمه من مائدته، لعازر الذى كـان جائعاً وتلحسه الكلاب. لقد انعكس الوضع، وعرف الجميع مَنْ منهما كان

[1] فكرة أن الجسد هو قبر للنفس تتفق تماماً مع الفلسفة الأفلاطونية المحدثة. أما بالنسبة للمسيحي، يكون جسده كقبر للنفس التي تسلك في الخطية.

غنياً بحق ومَنْ هو الفقير بحق، وأن لعازر كان أكثر رخاء من الجميع وأن الآخر كان أفقر الكل. إذ تماماً كما يحدث على المسرح حيث يدخل الممثلون وهم يلبسون أقنعة الملوك، والقواد، والأطباء، والمعلمين، والأساتذة، والجنود، دون أن يكونوا هم أنفسهم أي شيء من ذلك؛ هكذا في الحياة الحاضرة، فإن الغِنىَ والفقر ما هما إلا أقنعة وحسب. إذا كنت جالساً في المسرح ورأيت أحد الممثلين يلبس قناع الملك، أنت لا تدعوه محظوظاً أو سعيداً أو تظن أنه ملك بالفعل، كما أنك لا تتمنى أن تصير مثله؛ ولكن بما أنك تعلم أنه ربما يكون في الحقيقة أحد التجار أو أصحاب الحرف، لعله صانع حبال أو ممن يعملون في النحاس (نحّاس) أو ما شابه ذلك، فأنت لا تدعوه محظوظاً بسبب القناع الذي يلبسه والزي الذي يرتديه، كما أنك لا تحكم على طبقته الاجتماعية بمثل هذه الأشياء، بل ترفض هذه الأدلة بسبب ملابسه الخارجية. بنفس الطريقة، عندما تجلس هنا في هذا العالم وكأنك في مسرح وتنظر الممثلين على خشبة المسرح، فعندما ترى أغنياء كثيرين، لا تظن أنهم أغنياء بالحق، إنما هم يلبسون أقنعة الأغنياء. تماماً كما أن الذي يمثل دور الملك أو القائد على المسرح غالباً ما يكون في حقيقته خادماً في أحد البيوت أو بائعاً للتين أو العنب في السوق، هكذا أيضاً غالباً ما يكون الرجل الغني في حقيقته من أفقر الناس. فإذا نزعت عنه قناعه، وكشفت ضميره، ودخلت إلى عقله، غالباً ما تجد هناك فقراً مدقعاً في الفضيلة: سوف تجد أنه ينتمي إلى أحقر الطبقات. تماماً كما يحدث في المسرح، عندما يحل المساء وينصرف المشاهدون، ويخرج الملوك والقواد ليخلعوا الملابس التي أدّوا بها أدوارهم، وعندئذ يعرف الجميع حقيقتهم بالتدقيق؛ هكذا الآن أيضاً عندما يحضر الموت وينحل المسرح ، يخلع كل إنسان أقنعة الغنى والفقر ويرحل إلى العالم الآخر. عندما يُحكم على الجميع من أفعالهم

فقط، يظهر أن البعض كانوا أغنياء بحق، وآخرين فقراء، والبعض من طبقة رفيعة، والبعض الآخر لا حساب له.

كثيراً ما يحدث بالفعل أن يصير أحد الأغنياء في هذه الحياة أفقر الفقراء في الحياة الأخرى، والمثال على ذلك هذا الرجل الغني. إذ عندما حل عليه المساء، أي، الموت، وخرج من مسرح الحياة الحاضرة، وخلع قناعه، انكشف أنه كان من أفقر الناس في ذلك العالم الآخر؛ وكان فقره مدقعاً حتى إنه لم يكن يملك قطرة ماء واحدة، ولكنه اضطر أن يطلبها بإلحاح ومع ذلك لم يحصل عليها بتوسلاته. أي فقر أشد من هذا الفقر؟ اسمعوا: رفع عينيه وقال لإبراهيم: "يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرد لساني" (لو١٦: ٢٤). أرايتم مقدار المحنة التي كان فيها؟ عندما كان لعازر بقربه أهمله الغني، والآن عندما ابتعد عنه يناديه. الرجل الذي كان الغني يغفله كثيراً في دخوله وخروجه وكأنه لا يراه، الآن يراه بكل وضوح وهو بعيد عنه جداً. لماذا يراه؟ لعل هذا الرجل الغني كثيراً ما كان يقول لنفسه: "لماذا أحتاج إلى الرأفة والفضيلة؟ إن كل شيء يتدفق بين يدّيَّ بغزارة كما من نبع، وها أنا أتمتع برخاء عظيم ورفاهية كبير أنا لا تواجهني أية مصائب أو أحزان. فلماذا أسعى في أثر الفضيلة؟ هذا المسكين الذي يعيش في البر والتقوى، ها هو مع ذلك يعاني من مشاكل لا حصر لها". حتى الآن أناس كثيرون يعبّرون عن أفكار كهذه. لذلك، ولكي يقضي الرب على هذه الآراء الخاطئة، أظهر للغني أن العقوبة تنتظر الأشرار، وأن إكليل المجد ينتظر الأتقياء. الرجل الغني لم يرَ لعازر لأجل هذا السبب وحده، بل ولكي يحس الآن، ولكن بصورة أشد بنفس العذابات التي احتملها المسكين من قبل. إذ كما أن عذاب لعازر المسكين كان يشتد أكثر بسبب

انطراحه على باب الرجل الغني ورؤيته رخاء الآخرين، هكـــذا كانـــت تشتد عقوبة الرجل الغني بسبب أنه ملقى في الجحيم ويرى الراحة التـــي يتمتع بها لعازر؛ فكانت عقوبته غير المحتملة تشتد أكثر وأكثر ليس فقط بسبب طبيعة العذابات الواقعة عليه بل وأيضاً عندما يقارن حالتـــه مـــع المكافأة التي نالها لعازر المسكين. تماماً كما أن الله عندما طرد آدم مـــن الفردوس وضعه أمام الجنة حتى تزداد عذاباته برؤيتها المستمرة ويعطيه الله إحساساً أوضح بسقوطه عن الخير، هكذا أيضاً وضـــع الله الرجـــل الغني في مقابل لعازر لكي يرى الغني الخير الذي حرم نفسه منه. وكأن الرب يقول للغني: "لقد أرسلتُ لعازر المسكين إلى بابـــك لكـــي يعلمـــك الفضيلة وينال محبتك؛ إلا أنك أهملت هذه الفائدة ورفضت أن تســـتخدم معونته لكي تصل إلى الخلاص. من الآن وصاعداً سوف تستخدمه لكي تجلب على نفسك عذاباً أقسى وعقوبة أشد". نتعلم من الرجل المسكين أن كل من يعاني من اللعنات والظلم بيننا سوف ينتصب في مواجهتنا فـــي الحياة الأخرى. حقاً، إن لعازر لم يعانِ من الظلم على يد الرجل الغنـــي؛ لأن الرجل الغني لم يسلب لعازر أمواله، إنما فشل الغني في أن يشـــرك لعازر معه في أمواله الخاصة. فإذا صار الرجل الذي لم يشـــفق عليـــه الغني متهماً له لأنه لم يشركه معه في أمواله الخاصة، فأي عذر يتحجج به من سرق أموال الآخرين، عندما يقف وسط الذين ظلمهم؟ فـــي ذلـــك العالم لا توجد حاجة للشهود، أو المتهمين، أو الأدلـــة، أو البـــراهين؛ أن الأعمال نفسها سوف تظهر أمام أعيننا تماماً كما فعلناها.

وكأن المسيح يقول: "انظروا إلى الرجل وأعماله: هذه أيضاً ســـرقة بالفعل، أن لا تشرك الآخرين في ممتلكاتك". لعل هذه الجملة تبدو غريبة أمامكم، ولكن لا تندهشوا. سوف أورد لكم شاهداً من الأســـفار الإلهيـــة، يدل على أن ليس فقط سرقة أموال الآخرين بل وأيضـــاً عـــدم إشـــراك

الآخرين في خيراتنا الخاصة يُعتبر سرقة وغش واحتيال. ما هو هذه الشاهد؟ الله اتهم اليهود من خلال النبي قائلاً: "الأرض أخرجت ثمراً بزيادة وأنتم لم تقدموا عشوركم؛ أما سلب الفقير فهو في بيوتكم" (قارن ملا ٣:٨-١٠). بما أنكم لم تقدموا التقدمات المعتادة، يقول الرب، فلقد سرقتم خيرات الفقراء. والرب يقول ذلك لكي يبيّن للأغنياء أنهم يحتفظون بأموال الفقراء وممتلكاتهم حتى ولو كانوا قد ورثوها من آبائهم ومهما كانت الوسيلة التي جمعوا بها ثروتهم. ويقول الكتاب المقدس في موضع آخر: "يا ابني لا تحرم الفقير من معيشته" (سيراخ ٤:١). "ويحرم" (أو "يجرد" – Deprive) معناها أخذ ما يخص الآخرين؛ إذ أن أخذ ما يخص الغير والاحتفاظ به يُسمى "حرمان" (Deprivation). بهذا نتعلم أننا عندما لا نظهر الرحمة، نُعاقب تماماً مثل الذين يسرقون. ذلك أن أموالنا هي ملك للرب، مهما كانت الوسيلة التي جمعناها بها. وإذا نحن أعطينا للمحتاج، سوف تزداد خيراتنا بكثرة. وهذا هو السبب الذي من أجله سَمِحَ لك الله بأن تنال أكثر: لا لكي تضيّع أموالك على العاهرات، والسُكر، والأطعمة الشهية، والملابس الغالية الثمن، وكل باقي أنواع التراخي والكسل، إنما لكي توزعها على المحتاجين. تماماً كما أن المسئول عن الخزانة الملكية، إذا أهمل الصرف في الجهات المأمور بها، واستغل الأموال عوضاً عن ذلك لرفاهيته وراحته الخاصة، ينال العقوبة ويُسلم للموت، هكذا أيضاً الرجل الغني هو بمثابة وكيل على الأموال المودعة عنده للصرف على الفقراء. فالمفروض عليه أن يوزعها للعبيد رفقائه، أي للمحتاجين وبذلك فإذا هو أنفق على نفسه أكثر مما تحتاجه الضرورة، سوف ينال أقسى عقوبة في الآخرة. ذلك أن أمواله وخيراته ليست خاصة به، إنما تخص العبيد رفقاءه.

لذلك دعنا نستخدم خيراتنا باقتصاد، وكأنها تخص الآخرين، وبذلك تصير خيراتنا ملكاً لنا. كيف نستخدمها باقتصاد وكأنها تخص الآخرين؟ عندما لا ننفقها على أكثر مما نحتاج، ولا نصرفها فقط على احتياجاتنا الخاصة، إنما نضع في أيدي الفقراء نفس المقدار. إذا كنت مقتدراً، ولكنك صرفت على ذاتك أكثر من حاجتك، فسوف تعطي حساباً عن الأموال المودعة عندك. هذا يحدث أيضاً في البيوت الكبيرة. إذ يستودع كثيرون شئونهم المالية في أيدي خدام البيت والذين ينالون هذه الثقة يحافظون على ما أعطي لهم، ولا يسيئون استخدام المال، إنما يصرفونه في الجهة وفي الوقت الذي يحدده سيدهم. أنتم كذلك ينبغي أن تتصرفوا بهذا الشكل. فلقد نلتم أكثر من الآخرين، ولكنكم لم تنالوا ذلك للصرف على أنفسكم، إنما لكي تصيروا وكلاء أمناء لدى الآخرين أيضاً.

وجدير بنا أن نسأل أيضاً لماذا لم يرَ الرجل الغني لعازر برفقة أي بار آخر، إنما في حضن إبراهيم. إبراهيم كان مضيافاً. رأى الغني لعازر مع إبراهيم، لكيما يدينه لعازر أيضاً بأنه لم يكن يُحسن ضيافة الغرباء. ذلك أن إبراهيم كان يتصيد العابرين ويحضرهم إلى بيته، أما هذا الغني فلقد تغافل عمن هو ملقى داخل بابه. وبرغم أن الغني كان أمامه مثل هذا الكنز ومثل هذه المعونة التي تؤدى إلى خلاصه، إلا أنه كان يمر كل يوم بذلك المسكين ولم يستخدم ذلك لوقت الضرورة. أما إبراهيم فلم يكن من هذا القبيل، إنما على العكس تماماً: كان يجلس أمام باب خيمته يتصيد كل العابرين بجواره، وكما أن صياد السمك عندما يلقي شبكته في البحر لا يجتذب السمك فقط إنما كثيراً ما يعثر على ذهب وجواهر في الشبكة، هكذا حدث مع أب الآباء إبراهيم، ففى حين كان يتصيد الناس، اصطاد مرة ملائكة أيضاً، فوقع في يده النصيب الأعظم دون أن يعلم ذلك. وبولس في اندهاشه من هذا الحدث مجّد إبراهيم

بقوله: "لا تنسوا إضافة الغرباء لأن بها أضاف أناس ملائكة وهم لا يدرون" (عب ١٣:٢). إذا كان إبراهيم على علم بما يفعل حين استقبلهم بهذا الترحاب العظيم، لما كان عمله هذا يُحسب مدهشاً أو عظيماً؛ إن السبب كله في تكريم ابراهيم أب الآباء يكمن في أنه دون أي علم بالعابرين، وظنا منه أنهم مجرد أناس من البشر العاديين، دعاهم للدخول عنده بمثل هذه الحرارة والنشاط. أنتم أيضاً، عندما تستقبلون إنساناً مشهوراً وبارزاً، وتظهرون حماساً كبيراً، لا يُعدّ ذلك عملاً عظيماً، لأن فضيلة الضيف ومكانته غالباً ما تغصب حتى الإنسان غير المضياف أن يظهر حماساً وترحيباً. إنما الشيء العظيم بحق، هو عندما نستقبل أي عابر سبيل مهما كان، حتى لو كان من المنبوذين والمحتقرين، ببشاشة وترحاب. لأجل ذلك قال المسيح عندما رحب بالذين تصرفوا بهذا الشكل: "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم" (مت ٢٥:٤٠). ويقول أيضاً: "ليست مشيئة أبي الذي في السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار" (مت ١٨:١٤). ويقول أيضاً: "من أعثر أحد هؤلاء الصغار (المؤمنين بي) فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويُغرق في لجة البحر" (مت ١٨:٦). في كل مكان يتحدث المسيح كثيراً عن الصغار والمرذولين. كان إبراهيم يعرف هذا أيضاً، ولأجل ذلك لم يستفسر عن شخصية العابرين أو من أين أتوا، كما نفعل نحن الآن؛ كان بكل بساطة يستضيف ويرحب بكل من يعبر به. ذلك أنك إذا أردت أن تُظهر الرقة واللطف، لا يجب أن تستفسر عن حياة الإنسان الذي أمامك، إنما فقط أعطه حاجته وخفف من فقره.

الرجل الفقير له مطلب واحد فقط، أن تسد عوزه: فلا تطلب منه أكثر من ذلك؛ بل وحتى لو كان أشر الناس جميعاً ولكنه يفتقر إلى الغذاء الضروري، أعطه ما يسد جوعه. المسيح أيضاً أوصانا أن نفعل ذلك،

عندما قال: "كونوا مثل أبيكم الذي في السموات. فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين" (مـت ٥:٤٥). إن المتصدق هو ميناء للمحتاجين: ميناء يستقبل كـل مـن انكسـرت بهـم السفينة، ويشبع جوعهم؛ وما إذا كانوا أشراراً أو صالحين أو مهما كانوا، فطالما كانوا في خطر فإن الميناء يحميهم تحت مظلته. هكذا أنتم أيضـاً، عندما ترون على الأرض إنساناً انكسرت به سفينة الفقر، لا تدينوه، ولا تطلبوا بيانات عن حياته، إنما حرروه من مصيبته. لماذا تتسـببون فـي المشاكل لأنفسكم؟ الله أعفاكم عن كل فضول واستفسار. كم يكون تذمرنا إذا طلب منا الله أولاً أن نفحص حياة كل إنسان بتدقيق، وأن نتدخل فـي تصرفاته وأعماله، ثم بعد ذلك فقط نعطيه الصدقة؟ إلا أن الله أعفانا مـن كل هذا القلق والانزعاج. فلماذا تجلبون على أنفسكم هموماً إضـافية لا داعي لها؟ القاضي شيء، والمتصدق شيء آخر. إن الإحسان سُمّى كذلك لأننا نقدمه حتى لغير المستحقين. وينصحنا بولس أيضاً بـنفس الشـيء عندما يقول: "فلا نفشل في عمل الخير... للجميع ولا سيما لأهل الإيمان" (غلا ٦:٩-١٠). إذا نحن صرنا فضوليين وتدخلنا فـي شـئون غيـر المستحق، فحتى المستحق لن يرغب أبداً في الحضور إلينا؛ ولكن إذا كنا نقدم أيضاً لغير المستحق، فبدون شك سوف يأتي إلينا المستحق والـذين هم أكثر إستحقاقاً وإجلالاً من الجميع. هذا مـا حـدث مـع الطوبـاوى إبراهيم، الذي عندما لم يستفسر عن أو يتدخل فـي شـئون العـابرين، استطاع مرة أن يستقبل ملائكة. فلنتشبه به، وبأيوب الـذي جـاء مـن سلالته. ذلك أن أيوب تشبه تماماً بكرم سلفه، ولأجل ذلك قال: "الغريـب لم يبت في الخارج. فتحت للمسافر أبوابي" (أي ٣١:٣٢). إن أبوابه لـم تكن مفتوحة أمام إنسان ومغلقة أمام آخر، إنما كانت ببساطة مفتوحة أمام الجميع.

دعونا نحن أيضاً نفعل ذلك، أرجوكم، بدون أية استفسارات لا داعي لها. الشيء الوحيد الذي يجعل المسكين جديراً بالإحسان هو أنه محتاج وفي عوز؛ فإذا جاءنا أي إنسان مهما كان بهذه التوصية، لا داع لأن نكون فضوليين أكثر من اللازم. فنحن لا نقدم الإحسان لصفات الرجل إنما للرجل ذاته. ونحن لا نظهر نحوه الرحمة بسبب فضيلته وإنما بسبب مصيبته، وذلك لكى ننال نحن أيضاً من السيد الرب عظيم رحمته، ولكي نتمتع نحن أيضاً، رغم عدم استحقاقنا، بإحسانات الرب. فإذا كنا سوف نفحص ونحقق في استحقاق العبد رفيقنا، ونسأل بتدقيق، فسوف يعمل الرب معنا نفس الشيء. إذا طلبنا بيانات من العبيد رفقائنا، سوف نخسر نحن أنفسنا الإحسان الآتي من فوق: "لأنكم بالدينونة التي بها تدينون تُدانون" (مت ٧:٢)، يقول الرب. ولكن دعنا نعود بالحديث إلى موضوعنا. عندما رأى الرجل الغني لعازر في حضن إبراهيم، قال: "يا أبي إبراهيم ارحمنى وأرسل لعازر" (لو ١٦:٢٤).

لماذا لم يوجه الغني كلامه للعازر؟ يبدو لي أنه خجل واستحي، وبسبب ما حدث في الماضي ظن الغني أن لعازر يكنّ له الحقد بدون أدنى شك. ربما قال الغني لنفسه: "إذا كنت أنا، وأنا أتمتع بمثل ذلك الرخاء، ولم يظلمني أحد، أهملت الرجل الذي كان يعاني من مشاكل كثيرة مثل هذه، ولم أشركه حتى في الفتات، فهو بالأولى لن يوافق على عمل المعروف معي لأني أهملته سابقاً". نحن لا نقول ذلك لنتهم لعازر؛ فهو بالتأكيد لم تكن له أية مشاعر مثل هذه – حاشا؛ إنما نحن نقول إن الغني لم يوجه كلامه للعازر لأنه كان يخاف هذا الأمر، بل نادى على إبراهيم، الذي كان الغني يظنه على غير علم بما حدث، طلب الغني ذلك الأصبع الذي كثيراً ما تركه للكلاب تلحسه. ماذا قال إبراهيم؟ "يا ابني

اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك" (لــو١٦: ٢٥). انظــروا حكمــة وطيبة ذلك الرجل البار. لم يقل إبراهيم: "أيها الرجل الشــرير القاســي عديم الإنسانية، بعدما عاملت هذا المسكين بقسوة، تتذكر الآن الإحســان والرحمة والمغفرة؟ ألا تستحي؟ ألا تخجل؟ " ولكن ماذا قال؟ قــال: "يــا ابني لقد أستوفيت خيراتك". مكتوب: "لا تضيق أكثر على قلب البــائس" (سيراخ ٤: ٣)، تكفيه عقوبته؛ دعنا لا نزيد أكثر على المصــائب التــي حلت به. ولكيما لا يفسح إبراهيم المجال أمام الغني ليفكر أنه يمنع لعازر من الذهاب إليه بدافع التشفي والحقد دعاه "ابني"، وبذلك قــدم الاعتــذار الكافي عن نفسه. "ليس في قدرتي تحقيق طلبك"، قال إبراهيم، "ليس من المستطاع بعد، أن نذهب من هنا إلى هناك" . "لقد اســتوفيت خيراتــك". لماذا لم يقل ببساطة "لقد نلت خيراتك"، إنما: "لقد اســتوفيت خيراتــك"؟ أرى الكثير جداً من الأفكار ينفتح أمامنا عند هذه النقطة. لــذلك دعونــا نحتفظ بدقة بكل ما قيل، الآن ومن قبل، ونضعه جانباً في أمان. أعــدوا أنفسكم بصورة أفضل بما قيل سابقاً لتستمعوا لما سوف يُقال. وإذا أمكن، تذكروا كل ما قلته. وإذا تعذر عليكم أن تتذكروا كل شيء، عوضاً عــن كل شيء، أرجوكم، أن تتذكروا ما يلي ولا تنسوه: إننا عندما لا نشــرك الفقراء في أموالنا فهذا معناه أننا نسرقهم ونحرمهم من وسائل المعيشــة؛ وأننا لا نملك ثرواتنا الخاصة إنما ثروات الآخرين. إذا كانت لنــا هــذه المفاهيم ونتصرف هكذا، فنحن بدون شــك ســوف نتصــدق بأموالنــا. وبإشباعنا المسيح في فقره هنا وبادخار ربح عظيم لنا في الآخرة، سوف نتمكن من الحصول على الخيرات الأبدية، بالنعمة والرأفات اللواتي لربنا يسوع المسيح، الذي يليق به المجد والكرامة والقوة مــع الآب والــروح القدس، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور. آمين.

العظة الثالثة للقديس يوحنا ذهبي الفم على مثل " لعازر والرجل الغني"

كان مثل لعازر ذا منفعة كبرى لنا، أغنياء وفقراء، إذ منه يتعلم الفقراء أن يحتملوا فقرهم بصبر وجلد، والأغنياء أن لا يفتخروا بغناهم. لقد علمنا هذا المثل بالنموذج الحي أن أشقى الناس جميعاً هو مَنْ يعيش في رخاء ولا يشرك أحداً معه في خيراته. ولذلك دعونا اليوم نناقش الموضوع نفسه. الذين يعملون في المعادن، عندما يجدون عروقاً كثيرة من الذهب، يستمرون في التنقيب في نفس المكان، ولا يتوقفون عن الحفر حتى يخرجوا كل ما يجدونه من الذهب. فلنعد، إذاً، إلى حيث انتهت عظتنا الماضية، لنواصل الحديث من حيث توقفنا. كنت أستطيع أن أشرح لكم هذا المثل كله في يوم واحد؛ ولكن اهتمامي لا ينصب على أن أقول الكثير ثم أغادركم، إنما على أن تستقبلوا كلماتي وتتمسكوا بها بكل تدقيق، وتقتنوا من هذا الجهد المبذول في الحفظ بعض الإحساس الذي ينفعكم روحياً. إن الأم التي تحب رضيعها عندما تبدأ في أن تغذيه بالأطعمة الجامدة، إذا هي سكبت في فمه مرة واحدة عصيراً مركّزاً، لا تنفعه شيئاً بذلك، فالطفل سوف يبصق حالاً ما ناله، ويوسخ ملابسه من الأمام[1]. ولكن إذا هي سكبت العصير في فمه بلطف، قليلاً قليلاً، فسوف يبتلع الطفل ما تعطيه له أمه بدون صعوبة. كذلك بالمثل، لئلا تبصقوا توّا ما نلتموه، لم أسكب كأس التعليم في فمكم مرة واحدة، إنما قسّمته لكم على عدة أيام، معطياً لكم بعض الراحة من الاستماع في هذه

---

[1] "الإلياذة" لهوميروس ٩:٤٩١.

الأيام التي تتخلل العظات، وحتى يترسخ بثبات ما قلناه في مدارك محبتكم، ولكي تستقبلوا ما سوف أقوله بعد ذلك بنفس مرتاحة ومتحمسة. ولأجل هذا السبب أيضاً عادة ما أخبركم بالموضوع الذي سوف أتحدث فيه مسبقاً بأيام كثيرة، لكي أفسح لكم المجال أن تتناولوا الكتاب في خلال هذه الأيام، وتقرأوا النص كاملاً، وتعرفوا ما ذكر وما لم يرد ذكره، وبذلك تعدّوا أذهانكم بصورة أفضل لتقبل التعليم عندما تنصتون إلى ما سوف أقوله بعد ذلك.

كما أنني أيضاً أتوسل إليكم دائماً، ولا أكف عن التوسل، ليس فقط لتنتبهوا إلى ما أقوله هنا، إنما أيضاً لكي تواصلوا باستمرار قراءة الأسفار الإلهية عند عودتكم إلى منازلكم. وعندما كنت أجلس مع كل منكم على انفراد، لم أكن أكف عن إعطائكم نفس النصيحة. أرجو أن لا يتفوه أحدكم بتلك الكلمات الفارغة التي تستحق أعظم توبيخ: "أنا لا أستطيع أن أترك دار القضاء، أنا أدير شئون المدينة، أنا أمارس حرفة معينة، أنا عندي زوجة، أنا أربي أطفالاً، أنا مسئول عن البيت، أنا من أهل العالم، إن قراءة الأسفار الإلهية لا تناسبني، إنما هي عمل الذين اعتزلوا العالم، الذين سكنوا قمم الجبال، الذين يستمرون في عزلتهم على الدوام". ماذا تقول يا رجل؟ إن الاهتمام بقراءة الإنجيل لا يلائمك، لأنك مُحاط بالمشغوليات من كل ناحية؟ بل بالحري إن احتياجك إلى معونة الأسفار الإلهية يفوق احتياجهم[1] إليها. إن الرهبان، الذين تحرروا من جلبة السوق والإزعاج وبنوا أكواخهم في الصحراء، الذين ليست لهم معاملات مع أي إنسان، إنما يمارسون حياة النسك بدون خوف في سكون تلك الحياة الهادئة، وكأنهم رسوا في الميناء، يتمتعون بحصانة

[1] أي الرهبان الذين اعتزلوا العالم.

عظيمة؛ أما نحن، وكأن الأمواج تتقاذفنا في عرض البحـــر، وتتجاذبنـــا خطايا عديدة، نحتاج على الدوام إلى المعونة المستمرة التي نستمدها من الكتاب المقدس. هؤلاء (أي الرهبان) رسوا بعيداً عن أرض المعركـــة، ولذلك فإن الطعنات لا تصيبهم بكثرة؛ أما أنت فتقــف باســتمرار علـــى الجبهة، وتتلقي الضربات بدون انقطاع. لذلك فأنت في حاجة إلى أدويـــة أكثر. إن زوجتك تغيظك، مثلاً، وابنك يحزنـــك، وخادمـــك يغضـــبك، وعدوّك يدبر الخطط ضدك، وصديقك يحسدك، وجارك يلعنك، والجندى رفيقك يضايقك، وكثيراً ما تهددك المحكمة، ويزعجك الفقـــر، ويحزنـــك ضياع ممتلكاتك، والرخاء يجعلك تتكبر وتنتفخ، وسوء الحـــظ يجعلـــك تكتئب، وكم من أسباب كثيرة والتزامات تدفعك إلى الإحباط والأسى، أو إلى الوهم واليأس، وكم من قذائف لا حصر لها تسقط نحوك مـــن كـــل ناحية. لأجل كل ذلك، فنحن في احتياج مستمر للتسلح بالكامل بأســـلحة الكتاب المقدس. إذ لاحظ، أنه مكتوب، إنك تسير وسط الفخاخ وتمشـــي على أسوار المدينة (قارن سيراخ ٩:١٣) فمثلاً، إن شهوات الجسد تهاجم بشراسة أعظم الذين يعيشون وسط العالم: الوجه الجميل، والجسم الرائع يبهر أعيننا، الجملة القبيحة تخترق آذاننا فتربك ذهننا، وكثيرا ما تضعف الأغنية المبتذلة احتشام نفوسنا. ولكن لماذا أقول كل هذا الكلام؟ في حين أن مجرد رائحة عطر إحدى الخاطئات وهى تمر بجانبنا تأســرنا فـــي الحال، وهذه تعتبر هجمة من أخف الهجمات التي تواجهنا. كما أن هناك أشياء أخرى كثيرة مثل هذه تحاصر أنفسنا. فنحن نحتاج إلـــى الأدويـــة والعلاجات الإلهية لنشفي الجراحات التي أصابتنا، ولكي تحمينا وتحرسنا من الجراحات التي لم تصبنا بعد ولكنها سوف تصيبنا. يجب علينـــا أن نطفئ تماماً سهام إبليس ونطردها باستمرار بقراءة الأسفار الإلهيـــة. إذ يستحيل، يستحيل على أي إنسان أن يخلص بدون الاستفادة المستمرة من

المطالعات الروحية. ففي الحقيقة، يجب أن نكــون مقتنعــين بصــعوبة الجهاد لنوال الخلاص، حتى بالرغم من الاستعمال المستمر لهذا الدواء. ولكن إذا كنا نتلقى الضربات كل يوم ونحــن لا نســتخدم أي عــلاج أو وقاية طبية، فأي رجاء لنا في الخلاص؟

[يستمر القديس يوحنا في مدح قراءة الأسفار الإلهية]

قراءة الأسفار الإلهية هى وسيلة ضمان عظيمة ضد الخطيئــة أمــا الجهل بالأسفار فهو منحدر خطير وهوة عميقة جدًّا؛ عدم معرفة القوانين الإلهية هو خيانة عظمى للخلاص. هذا الجهل ولــّدَ الهرطقات، وأدخل حياة فاسدة، وقلب الأمور رأساً على عقب. إذ يستحيل، يستحيل على أي إنسان أن لا ينال فائدة إذا هو قرأ باستمرار وبانتباه. انظروا: أية معونة نلناها من مثل واحد! وأي تحسن أدخله على نفوسنا! أنا متأكد أن كثيرين انصرفوا وقد نالوا منفعة عظمى ودائمة من الاستماع؛ ولكــن إذا وجــد البعض لم يجنوا مثل هذه الثمار، فمع ذلك لا بد وأنهم في اليوم الواحــد الذي استمعوا فيه، قد تحسنت أحوالهم بكل تأكيد. أنه أمر لا يُستهان بــه أن تقضي يوماً واحداً في الندم على الخطيئة، وفي النظر إلــى الفلســفة السمائية، وأن تعطى نفسك بعض الراحة على الأقل من اهتمامات العالم. وإذا فعلنا هكذا في كل خدمة دون أن يفوتنا أي شــيء، ســوف يحقــق الاستماع المستمر صلاحاً عظيماً جداً في داخلنا.

تعالوا إذن، دعوني أشرح لكم الجزء التالي من المثل. ما هو الجزء التالي؟ عندما يقول الرجل الغني: " أرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرّد لساني"، انصتوا لما يقوله إبراهيم: "يا ابني اذكر أنــك اســتوفيت خيراتك في حياتك وكذلك استوفى لعازر بلاياه. والآن هو يتعزى وأنــت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوّة عظيمة قد أثبتت حتى أن الــذين

يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا" (لو١٦: ٢٤-٢٦). أنا أعرف جيداً ما أصعب احتمال هذا القول، فهو يجلب لنا حزناً عظيماً؛ ولكن كلما يوجعنا ضميرنا، كلما نلنا معونة أكبر على الفهم. إذا واجهنا إبراهيم بهذا القول في تلك الحياة، كما واجه به الرجل الغني، فنحن بالتأكيد سوف نبكي ونئن، لأن الوقت لم يعد يسعفنا لتقديم التوبة. ولكن بما أننا نسمع هذه الكلمات ونحن ما نزال في هذه الحياة، حيث الفرصة متاحة لاستعادة الرصانة والاعتدال، ولغسل خطايانا، ولاقتناء الثقة والدالة، ولتغيير ذواتنا خوفاً من الشرور التي أصابت الكثيرين، فلنشكر الرب الذي يحب البشر، والذي يوقظنا من الكسل بالعقوبات التي حلّت بالآخرين وينهضنا من النوم. لقد أخبرنا المسيح بهذا المثل مسبقاً لأجل هذا السبب: أي لكي يحفظنا من نوال نفس العقوبة. فإذا كان المسيح يريد أن يعاقبنا، لما أخبرنا بذلك مقدماً، ولكن بما أنه لا يود أن يعرّضنا للعقوبة، لأجل هذا السبب بعينه يخبرنا بالعقوبة مسبقاً، لكيما نقتني الحس والمعرفة من كلماته ونتجنب المحنة بالفعل.

ولكن لماذا لم يقل إبراهيم: "لقد نلت خيراتك"، إنما "لقد استوفيت خيراتك" ؟ تتذكرون، كما أعلم، أنني قلت أن بحراً زاخراً بالمعاني ينفتح أمامنا. إن كلمة "استوفيت" [RECEIVE AS DUE] تشير إلى وتكشف نوعاً ما من الالتزام أو الصك (OBLIGATION)، ذلك أن الإنسان يستوفي ما هو حق له. فإذا كان هذا الرجل الغني شريراً ومنفراً، قاسياً ومتوحشاً، فلماذا لم يقل له إبراهيم: "لقد نلت خيراتك"، إنما "لقد استوفيت خيراتك"، وكأن هذه الخيرات كانت ديون له يستحق نوالها؟ ماذا نتعلم من ذلك؟ أنه حتى لو كان بعض الناس أشراراً ووصلوا إلى أقصى درجات الشر، فغالبا ما يكونوا قد قاموا بعمل أو اثنين أو ثلاثة

من الأعمال الصالحة. ويتضح من الكتاب المقدس صحة ما أقول. إذ ما هو أكثر شراً من ظلم ذلك القاضي الظالم؟ أية وحشية أكثر من ذلك؟ أي عدم تقوى أكثر من ذلك؟ ذلك القاضي كان لا يخاف الله ولا يهاب إنساناً؛ ومع ذلك، برغم شروره هذه، قام بعمل نبيل، عندما رحم الأرملة التي كانت تزعجه باستمرار، وصنع معها معروفاً، وحقق مطلبها، وأنصفها من خصمها الذي كان يظلمها (راجع لو١٨:٢-٥). هكذا فمن الممكن أن يكون الإنسان فاسقا ومع ذلك كثيراً ما يُظهر الرحمة، أو يكون قاسياً متوحشاً ومع ذلك يضبط ذاته؛ أو حتى إذا كان فاسقاً ومستهتراً، فبرغم ذلك كثيراً ما يحدث أن يقوم هذا الرجل ولو بعمل صالح واحد في حياته. ينبغي أن نفترض نفس الشيء أيضاً في حالة الناس الصالحين. فكما أن أكثر الناس شروراً احياناً ما يفعلون أمراً صالحاً، هكذا الأمناء والأتقياء احياناً ما يفشلون تماماً في جهة ما. مكتوب: "من يقول أني زكّيت قلبي وتطهّرت من خطيتي؟" (أم ٢٠:٩).

لذلك إذن، فمن المحتمل أن الرجل الغني حتى لو وصل إلى أقصى درجات الشر، يكون قد عمل ثمة عمل صالح، وأن لعازر حتى لو وصل إلى قمة الفضيلة، ربما يكون قد ارتكب خطيئة صغيرة، وانظر كيف أن إبراهيم يشير إلى الاثنين في قوله: "لقد استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك استوفى لعازر بلاياه". والمعنى الذي يقصده إبراهيم هو هذا: حتى إذا كنت قد عملت عملاً صالحاً، واستحققت المكافأة على ذلك، فأنت قد استوفيت كل شيء في ذلك العالم، إذ عشت في بحبوحة ورخاء، وتمتعت برفاهية عظيمة وثروة طائلة؛ وإذا كان هذا الرجل (لعازر) قد ارتكب خطأ ما، فلقد استوفى ما يستحقه بالتمام، من فقر وجوع وأقصى أنواع المصائب. فكل منكما وصل إلى هنا عارياً تماماً، هو من الخطايا، أما أنت فمن كل أفعال البر والتقوى. ولأجل ذلك فهو يتمتع بعزاء كامل،

وأنت تتعذب بعقوبات لا نهاية لها. إذ عندما تكون أعمالنا الصالحة قليلة وصغيرة، وثقل خطايانا عظيم جداً، وبالرغم من ذلك نتمتع في هذه الحياة بالرفاهية ولا تقابلنا أية محن أو مصائب، فنحن بالتأكيد سوف نفارق الحياة عراة تماماً ومجردين مما تستحقه الأعمال الصالحة، إذ نكون قد استوفينا كل حقوقنا في هذه الحياة. كذلك بالمثل، عندما تكون أعمالنا الصالحة كثيرة وعظيمة، ولكن خطايانا صغيرة وبسيطة، ثم تواجهنا بعض المحن والمصائب، نخلع عنا وزر تلك الخطايا الصغيرة في هذه الحياة، وفي الحياة الأخرى ننال كحق لنا مكافأة خالصة على أعمالنا الصالحة. لأجل ذلك، متى رأيتم إنساناً يعيش في الشر ولا تواجهه أية محن في هذه الحياة، فلا تدعوه محظوظاً، إنما ابكوا ونوحوا عليه، لأنه سوف يتحمل كافة المحن في الحياة الأخرى، تماماً مثل هذا الرجل الغني. أيضاً، متى رأيتم إنساناً يتاجر بالفضائل، ولكن تواجهه محن لا حصر لها، ادعوه محظوظاً، واحسدوه، لأن خطاياه كلها قد ذابت واختفت في هذه الحياة، وهناك مكافأة عظمى معدة له في الحياة التالية لأجل احتماله وصبره؛ تماماً كما حدث مع لعازر هذا.

بعض الناس يُعاقبون فقط في هذه الحياة؛ وآخرون لا يعانون من أية محن هنا، ولكنهم ينالون العقاب الذي يستحقونه كاملاً في الحياة الأخرى؛ أما آخرون فيُعاقبون هنا وفي الآخرة. فأي من هؤلاء الثلاثة تظنونهم محظوظين؟ في المقام الأول، أنا متأكد، أن المحظوظين هم الذين يُعاقبون هنا ويتخلصون من خطاياهم. ثم من بعدهم في المرتبة الثانية؟ لعلكم تظنونهم من لا يُعاقبون بشيء هنا، إنما ينالون عقوبتهم كلها في الآخرة – ولكني أقول ليس هؤلاء، إنما الذين يُعاقبون هنا وفي الآخرة. لأن الذي ينال بعض العقوبة هنا سوف يعاني من عقوبة أخف في الآخرة؛ أما الذي يُجبَر على احتمال عقوبته كاملة في الآخرة فسوف

تكون دينونته قاسية لا تعرف الرحمة، تماماً مثل هذا الرجل الغني، ذلك أنه لم يغسل أياً من خطاياه هنا، فكانت عقوبته قاسية جداً لدرجة أنه لم يستطع الحصول حتى ولا على أصغر نقطة من الماء. إنما أنا أتأسف بالأكثر، ليس على من يخطئون ولا يعانون من أية محن هنا، بل على الذين بجانب أنهم لا يُعاقبون هنا يتمتعون أيضاً بالرخاء والرفاهية ولايعوزهم شيء. إذ تماماً كما أن عدم دفع غرامة خطاياهم هنا يجعل عقوبتهم أكثر قسوة في الآخرة، هكذا أيضاً يصير تمتع الخطاة بالملذات والرفاهية والغنى مصدراً وسبباً لعقوبة أعظم في الآخرة في حين ينال الخطاة بتوبتهم الكرامة من الله، هذه الحقيقة في حد ذاتها قادرة أن تدفع بهم إلى عمق أكبر في النيران. إذا كان الإنسان الذي يتمتع بطول أناة الله فقط لا يستخدم ذلك استخداماً حسناً، فسوف تكون عقوبته أكثر قسوة؛ وإذا نال بجانب طول أناة الله تكريماً زائداً، ثم بعد ذلك يستمر هذا الإنسان في الشر، فمَنْ يستطيع أن ينقذه من العقوبة على ذلك؟ وكشهادة على أن الذين يتمتعون بطول أناة الله هنا سوف يجلبون على أنفسهم مجازاة شرورهم بالكامل في الآخرة إذا لم يتوبوا، اسمعوا ما يقوله بولس: "أفتظن هذا أيها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها أنك تنجو من دينونة الله؟ أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة؟ ولكنك لأجل قساوتك وقلبك غير التائب تذخر لنفسك غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة" (رو٢:٣-٥). لذلك عندما نرى أناساً يعيشون في رخاء ورفاهية، معطرين بالروائح الحلوة، يقضون يومهم في السكر، ويتمتعون بكرامة وقوة عظيمتين، ولهم شهرة ونفوذ كبيران، ومع ذلك يخطئون، ولا تواجههم أية محن، فلأجل هذا السبب بعينه يجب أن نبكي وننوح بالأخص عليهم، لأنهم لا ينالون أي عقاب هنا على خطاياهم. تماماً كما

لو أنك رأيت إنساناً مريضاً بالاستسقاء أو بمـرض فـي الطحـال، أو مصاباً بقرحة عفنة وبقروح كثيرة على جسمه كله، وبالرغم من كل ذلك رأيته يسكر، وينغمس في الملذات، مما يجعل مرضه يتفـاقم بـالأكثر، فأنت سوف لن يخدعك ذلك، ولن تظنه سعيداً محظوظـاً بسـبب حيـاة الرفاهية التي يعيشها، بل ولأجل هذا السبب على وجه الخصوص سوف تتأسف عليه وتحزن بالأكثر. يجب عليكم أن تفكروا أيضاً بهذه الطريقـة بخصوص النفس. فعندما ترون إنساناً يعيش في الشر ويتمتـع برخـاء عظيم، دون أن يعاني من أية مشاكل أو محن، يجب أن تتوجـوا عليـه لأجل هذا السبب بالأخص، لأنه بالرغم من أنه مصاب بمرض خطيـر جداً وبقروح، إلا أنه يجعل مرضه يتفاقم، ويجعل حالته أسوأ برفاهيتـه وانغماسه في الملذات. ذلك أن العقوبة ليست شراً، إنما الخطيئـة هـي الشر. الخطيئة تفصلنا عن الله، أما العقوبة فتقودنا إلى الله وتبدد غضبه. كيف نعرف ذلك؟ اسمعوا ما يقوله النبي: "عزوا عـزوا شـعبي، أيهـا الكهنة، طيّبوا قلب أورشليم ونادوا بأن جهادها قد كمل وأن إثمها قد عُفِي عنه لأنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياهـا" (إش ٤٠:١-٢). ويقول نفس النبي في موضع آخر: "يارب تجعل لنا سـلاماً، لأنـك أعطيتنا كل ما نسـتحق" (أش ٢٦:١٢). ولكـي تعرفـوا أن الـبعض يُعاقبون هنا، وآخرون في الآخرة، وآخرون يُعاقبون هنا وفي الآخـرة، انصتوا لما يقوله بولس شاجباً من يتناولون الأسـرار المقدسـة بـدون استحقاق؛ إذ أنه عندما قال: "أيُّ مَنْ أكل جسد الرب وشـرب دم الـرب بدون استحقاق يكون متهماً بتدنيس جسد المسيح ودمه"[١]، أضاف للتـو: "من أجل ذلك فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون[٢]. لأننـا

---

[١] بحسب نص العظة.

[٢] أي، ماتوا.

لو كنا حكمنا على أنفسنا بالحق لما حُكم علينا. ولكن إذ قد حُكم علينا من الرب، نـُؤدَّب لكي لا نُدان مع العالم" (١كو ١١: ٢٧-٣٢ - بحسب النص الوارد في العظة). هل ترون كيف أن العقاب هنا ينتشلنا من العقاب في الآخرة؟ ويقول بولس أيضاً عن الرجل الزاني: "سلموا هذا الإنسان للشيطان لهلاك الجسد، لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع" (١كو ٥:٥). ويتضح هذا الأمر أيضاً من مثل لعازر، أنه لو كان قد ارتكب أي شر، فهو قد غسل هذا الشر في حياته على الأرض[1]، وبذلك انتقل نظيفاً إلى الحياة الأخرى. ويتضح ذلك أيضاً من قصة المفلوج، إذ عندما رقد مضطجعاً لمدة ثمان وثلاثين سنة، تخلص من خطاياه بسبب طول مدة مرضه. والدليل على أنه رقد هكذا بسبب خطاياه، اسمعوا ما يقوله المسيح: "ها أنت قد بَرئت! فلا تخطئ أيضاً لئلا يكون لك أشر" (يو ٥: ١٤). هكذا يتضح من هذه الفقرات أن بعض الناس يُعاقبون هنا في هذه الحياة ويتخلصون من خطاياهم.

والدليل على أن البعض يُعاقبون هنا وفي الآخرة، إذا هم لم ينالوا العقوبة الكافية هنا بحسب عظمة خطاياهم، اسمعوا ما يقوله المسيح عن السدوميين؛ فبعدما قال: "كل مَنْ لا يقبلكم.. انفضوا الغبار عن أرجلكم.." (لو ٩: ٥)، استرسل فقال أيضاً: "أنه يكون لسدوم وعمورة في ذلك اليوم حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة" (لو ١٠: ١٢). فعندما قال: "أكثر احتمالاً"، كشف المسيح أنهم هم أيضاً سوف يُعاقبون، ولكن بصورة أخف، بسبب أنهم دفعوا أيضاً الغرامة في هذه الحياة. ونعرف أن بعض الناس لا يعانون هنا من أية محن أو مصائب، إنما يتحملون عذابهم وعقوبتهم كاملة في الحياة الأخرى، وذلك من قصة هذا الرجل الغني

[1] بالمحن التي احتملها بصبر.

الذي وقعت عليه عقوبة لاتـُحتمل ولا تنتهي في الحياة الأخرى، والذى لم تصبه حتى أقل درجة من الغفران، لأن عقوبته بالكامل حُفظت له في الحياة الأخرى. وتماماً كما أن الخطاة الذين لا يتعرضون لأي سوء حظ هنا يخضعون لعقوبة أعظم في الآخرة، هكذا الأبرار الذين يعانون من بعض المحن هنا سوف يتمتعون بكرامة أعظم في الآخرة. وتماماً كما أنه لو وُجد اثنان من الخطاة، نال أحدهما عقابه هنا، في حين أن الآخر لم يُعاقب، يكون الذى عُوقب هنا أفضل حظاً في الابدية من الآخر الذي لم يُعاقب؛ هكذا أيضاً إذا وُجد بارّان، احتمل أحدهما ضيقات أعظم هنا، والآخر أقل، فإن الذى احتمل الضيقات الأعظم يكون أفضل حظاً في الابدية، لأنه "سيجازي كل واحد حسب عمله" (مت ١٦:٢٧).

ماذا إذن؟ ربما يسأل أحدكم: "ألا يوجد إنسان يتمتع بالراحة هنا وفي الآخرة"؟ هذا لا يمكن أن يحدث لانه مستحيل. مستحيل تماماً على إنسان يتمتع بحياة سهلة ولا يعوزه شيء في هذا العالم، وعلى مَن ينغمس في الملذات بكل نوع، والذي يعيش كيفما اتفق وبطياشة، أن يتمتع بالمجد والكرامة في العالم الآخر. فإذا كان الفقر لا يزعجه، هناك الشهوة تضايقه، وهو يتعذب من جرَّائها، فإن ألمها ليس بقليل. وإذا لم يهدده المرض، ربما تكون أعصابه من النوع الذي يتوتر بسرعة، والغضب يحتاج إلى صراع أكثر من العادى للتغلب عليه. وإذا لم تمحصه التجارب، فإن الأفكار الشريرة لا تكف عن مهاجمته. إن تلجيم الشهوات الطائشة، وكبح المجد الباطل، وضبط الغرور والكبرياء، والامتناع عن رغد العيش، والاستمرار في النسك والتقشف، ليست من الأعمال السهلة التي في إمكان كل إنسان. الإنسان الذي لا يقوم بهذه الأمور وما شابهها لا يستطيع أن يخلص. وكشهادة على أن الذين يعيشون حياة البذخ والرفاهية لا يستطيعون أن يخلصوا، اسمع ما يقوله بولس عن الأرملة:

"أما المتنعمة فقد ماتت وهى حيّة" (اتى ٥:٦). فـإذا قيـل ذلـك عـن الأرملة، فهو ينطبق بالأكثر على الرجل. ولقد أوضح المسيح أيضـاً أن الذي يعيش حياة سهلة ومترفهة لا يستطيع الوصول إلى السموات، وذلك في قوله: "ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يـؤدي إلـى الحيـاة، وقليلون هم الذين يجدونه" (مت ٧:١٤).

ربما يسأل أحدكم: "فكيف يقول إذن" نيري هين وحملـي خفيـف"؟ (مت ١١:٣٠). إذا كان الطريق ضيقاً وصعباً، فكيـف يـدعوه أيضـاً "خفيفاً وهيناً"؟ ما قاله المسيح أولاً هو بسبب طبيعة التجارب أما ما قالـه مؤخراً فيرجع إلى استجابة واستعداد المسافرين. فمن الممكن حتى علـى الأمر الذى لا يُحتمل بالطبيعة أن يصير خفيفـاً عنـدما نقبلـه بنشـاط وحماس؛ تماماً مثل الرسل الذين بعدما جُلـدوا عـادوا فـرحين لأنهـم استحقوا أن يُهانوا لأجل اسم الرب (أع ٥:٤١). إن طبيعة العذاب تجلب بالفعل الضيق والأسى ذلك بصورة طبيعية، إنما استعداد ورحابة صـدر الذين جُلدوا هزمت حتى طبيعة عذاباتهم. لأجل ذلك يقول بولس: "جميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضـطهدون" (٢تـي ٣:١٢). فإذا لم يضطهدنا البشر، فإن إبليس يشنّ علينا الحروب. نحـن نحتاج إلى حكمة عظيمة وإلى مثابرة، لكي نحافظ على اليقظة والرزانـة وقت الصلاة، ولكي لا نشتهي ممتلكات الآخرين، إنما نفرق أموالنا على المحتاجين، ولكي نرفض ونحتقر كافة أنواع الرخاء والرفاهية، مـا إذا كان ذلك بالنسبة إلى الملابس أو الأطعمة، لكي نتجنب الطمع، والسُكر، والافتراء على الآخرين، ولكي نضبط ألسنتنا ونبتعد عن كـل صـخب وحماقة، "لِيُرفع من بينكم كل مرارة وسخط وغضب وصياح وتجـديف" (أف ٤:٣١)، ولكي نمتنع عن كل حديث مخزٍ وعن الفكاهة والضـحك. إن الاعتناء بحفظ هذه الأشياء كلها يحتاج إلى جهد لا يُسـتهان بـه. إذا

أردت أن تعرف صعوبة الحياة باستقامة وحكمة، وكيف أن هذه المهمة لا تهاون فيها، اسمع ما يقوله بولس: "أقمع جسدي وأستعبده" (١كو٩:٢٧). وفي قوله هذا تلميح إلى الجهد والقسر اللذين لابد للذين يريدون تعليم أجسادهم الطاعة والخضوع في كل شيء أن يستعملوهما. ولقد قال المسيح أيضاً لتلاميذه: "في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا (أو تشجعوا)، أنا قد غلبتُ العالم" (يو١٦:٣٣). هذا الضيق، يقول المسيح، سوف يجلب لكم الراحة، الحياة الحاضرة هى حلبة المصارعة: ففي حلبة المصارعة أو في المباريات، الرجل الذي يريد أن يُكلل لا سبيل له إلى الرخاوة والكسل. لذلك إذا أراد أحدكم أن يفوز بتاج النصرة يجب عليه أن يختار الحياة الشاقة والمتعبة، حتى بعدما يجاهد لفترة قصيرة من الزمن يتمتع بالكرامة الأبدية في الآخرة.

كم من المنغصات تواجهنا كل يوم؟ كم تحتاج أنفسنا إلى الجهاد المستمر برغم نفاذ الصبر والملل، بل ويجب أن تشكر، وتمجد وتسجد لله الذي يسمح لهذه التجارب أن تهاجمها. كم من الصعاب غير المتوقعة تجابهنا؟ كذلك ينبغي علينا أن نصد أفكارنا الشريرة ولا نسمح لألسنتنا أن تنطق بأي شيء كريه، تماماً مثل الطوباوي أيوب، الذي برغم احتماله مصائب لا حصر لها، استمر في تقديم الشكر لله.

بعض الناس عندما يعثرهم أحد أو يفتري عليهم، أو إذا أصابهم مرض ما من الأمراض المزمنة أو داء النقرس أو الصداع أو ما شابه ذلك من الأمراض، يجدفون لوقتهم. فهم يخضعون لآلام المرض، ولكن يحرمون أنفسهم من منفعته. ماذا أنت فاعل أيها الرجل، أتجدف على المحسن إليك ومخلصك وحاميك وحارسك؟ أم أنك لا تلاحظ أنك تهوي من على جرفٍ عالٍ وتطرح بنفسك في هوة الهلاك الأبدى؟ أنت لا تخفف من عذاباتك بتجديفك، أليس كذلك؟ بل أنت بالعكس تضاعفها،

وتجعل حزنك أكثر شناعة. ذلك أن إبليس يجلب عليك مصائب عديدة لأجل هذا الغرض بعينه، أي، لكي يدفعك في تلك الهوة السحيقة. فإذا رآك إبليس تجدف، سوف يزيد من عذابك بسرعة ويجعله يتفاقم، حتى متى نُخِسْت تسلم نفسك له مرة أخرى؛ أما إذا رآك تحتمل بشجاعة، وتشكر الله بالأكثر، كلما ازدادت عذاباتك سوءً، يرفع إبليس عنك الحصار توًّا، عالماً أنه لا فائدة لمحاصرتك أكثر من ذلك. الكلب الذي يجلس تحت المائدة، إذا رأى الشخص الذي يأكل يرمي له باستمرار كسراً من الطعام من على المائدة، سوف يبقى في مكانه دون أن يغادره؛ ولكن إذا جلس بجوار المائدة مرة ومرتين دون أن يصيبه أي طعام، سوف يغادر مكانه بعد ذلك مفكراً أن البقاء هناك لم يعد له أية فائدة. بنفس الطريقة يفغر إبليس فاه باستمرار نحونا؛ فإذا رميت له، كما لكلب، بعض كلمات التجديف، سوف يتناولها ويهاجمك مرة أخرى؛ أما إذا واظبت أنت على الشكر، تكون قد خنقته بالجوع، وطردته وألقيته بعيداً عنك. ولكنك تقول إنك لا تستطيع السكوت عندما ينخسك الحزن والأسى. أنا بكل تأكيد لا أمنعك من التفوه بكلمة، إنما اشكر عوضاً عن أن تجدف، اسجد لله بدلاً من اليأس. اعترف لله، اصرخ عالياً في الصلاة، ارفع صوتك بتسبيح الرب. بهذه الطريقة تصير عذاباتك أخف، لأن إبليس سوف ينسحب بسبب تشكراتك ومعونة الله سوف تقف بجوارك. أما إذا جدفت، تكون قد طردت عنك معونة الله، وجعلت إبليس أكثر تسلطاً عليك، وتكون قد دفعت بنفسك إلى عذابات أشد وأقسى. ولكن إذا أنت شكرت، تكون قد أبعدت عنك خطط إبليس الشرير، وجذبت نحوك عناية الله حافظك وحارسك.

إلا أن اللسان، بحسب العادة، كثيراً ما يتذمر ويسخط. فإذا بدأ، وقبلما تخرج تلك الكلمة، عض عليه بشدة بأسنانك. الأفضل أن يتخضب

اللسان بالدم الآن، عن أن يطلب لاحقاً قطرة ماء ليبرد عطشه ولا يجد. الأفضل للسان أن يتحمل ألماً مؤقتاً عن أن يعاني من العذاب لاحقاً ومن الدينونة الأبدية، كما التهب لسان الرجل الغني ولم يجد ما يبرده. لقد أمرك الله أن تحب أعداءك؛ فهل تدير ظهرك لله الذي يحبك؟ لقد أمرك أن تتحدث حسناً عن الذين يلعنونك، وأن تبارك الذين يفترون عليك (لو٦: ٢٧، ٢٨)؛ فهل تتحدث بالسوء على مَنْ أحسن إليك وحفظك في حين أنك لم تعانِ من أي ظلم؟ ربما تقول: ألم يكن الله قادراً أن يخلصني من التجارب، أليس كذلك؟ إلا أنه سمح بها، لكي يحسّن من شخصيتك. ولكن إذا أنت قلت، ها أنا أسقط وأهلك. أقول لك أن ذلك ليس بسبب طبيعة التجربة، إنما بسبب بلادتك وكسلك. أيهما أسهل، أخبرني، التجديف أم الشكر؟ ألا يجعل التجديف سامعيك يكرهونك ويلقي بهم في اليأس، وبعد ذلك يتسبب في حزن بالغ؛ أما الشكر فيجلب لك أكاليل عديدة، ويجعل الكل يقدرونك لأجل حكمتك، ويحفظ لك مكافأة عظمى من الله. فلماذا إذن تهمل ما هو في صفك، وما هو سهل، وسار، وتسعى عوضاً عن ذلك وراء ما هو ضار ومؤلم ومدمر؟

بالإضافة إلى ذلك، إذا كانت الضيقة وتجربة الفقر هما الدافع إلى التجديف، لكان من الواجب على كل الذين يعانون من الفقر أن يجدفوا؛ ولكن في الحقيقة هناك الكثيرون ممن يعيشون في فقر مدقع يشكرون باستمرار، في حين أن آخرين يتمتعون بالثروة والرفاهية لا يكفون عن التجديف. إذاً السبب وراء هذا أو ذاك لا يكمن في طبيعة ظروفنا الخارجية إنما في اختيارنا ورغبتنا الذاتية. لأجل هذا السبب أيضاً قرأنا هذا المثل، لكي أعلمكم أن الثروة لا تفيد الرجل البليد والكسول، كما أن الفقر لا يضر الرجل النشيط والمجاهد. ولماذا أقول "الفقر"؟ بل وحتى لو أجتمعت كل مصائب البشر جميعاً، لا تستطيع أبداً أن تضر نفس الرجل

الحكيم الذي يحب الله، ولا أن تقنعه بأن يكف عن الفضيلة (ولعازر هو شهادة على ذلك). كذلك بالمثل، لا يستطيع الرجل اللعوب والفاسق أن يستفيد على الإطلاق من الثروة، والصحة، والرخاء المستمر، أو من أي شيء آخر. لذلك دعونا لا نقول إن الفقر، أو المرض، أو اقتراب المخاطر يجبرنا على التجديف. ليس الفقر إنما الحماقة، ليس المرض إنما الغفلة، ليس اقتراب المخاطر إنما انعدام التمييز هو الذي يقود الغافلين إلى التجديف وإلى كل أنواع الشرور.

ربما يسأل بعضكم، لماذا يُعاقب البعض هنا، في حين أن آخرين يُعاقبون فقط في الآخرة ولا ينالون أي عقاب هنا؟ لماذا؟ لأننا إذا كنا كلنا سوف نعاقب هنا، لهلكنا جميعاً، لأننا كلنا نستحق العقاب. وفي المقابل، إذا لم يُعاقب أي أحد هنا، لصار أغلب الناس مهملين للغاية، وسوف يقول الكثيرون إنه لا توجد عناية أو تدبير إلهي. فإذا كانوا هم الآن، ينطقون بتجاديف كثيرة من هذا النوع، برغم أنهم يرون كثيرين من الأشرار يُعاقبون، فإذا لم يكن الأمر كذلك لازداد تجديفهم بالأكثر، وإلى أي مدى سوف يتمادون في الشر؟ لأجل ذلك، فإن الله يعاقب البعض هنا، ولكنه لا يعاقب آخرين، وهو يعاقب البعض، ليقطع عليهم طريق الشر، ولكي يجعل عقوبتهم في الآخرة أخف، أو حتى ربما يعفيهم تماماً منها، ولكي يجعل الذين يعيشون وسط الشرور يتحسن حالهم عندما يرون عقوبة هؤلاء الناس. أما آخرون، على كل حال، فهو لا يعاقبهم، حتى إذا ما انتبهوا لأنفسهم، وتابوا، واحترموا طول أناة الله، ربما يُعفون من العقوبة هنا وفي الآخرة؛ أما إذا استمروا في شرورهم وعاندوا، دون أن يستفيدوا من صبر الله على شرورهم، ربما ينالون عقوبة أعظم بسبب قلة احترامهم وازدرائهم بطول أناة الله. ولكن إذا قال أحدكم من أصحاب المعرفة إن الذين يُعاقبون هنا يُعاملون بغير عدل، لأنهم ربما يتوبون في

هذه الحياة، نقول له هذا: إذا كان الله عرف مسبقاً أنهم سوف يتوبون، لمَا عاقبهم. وإذا لم ينزل الله عقابه على الذين يعلم أنهم سوف يستمرون في شرهم، فبالأولى كان يترك الذين يعرف أنهم سوف يستفيدون من صبره في حالهم في الحياة الحاضرة، لكي يفسح لهم المجال لاستغلال هذه الفترة في التوبة. ولكن في الواقع، إذ يعاقبهم الله مسبقاً، فهو يجعل بذلك عقوبتهم في الآخرة أخف، ويُحسّن من حال الآخرين بعقوبة هؤلاء. ولماذا لا يفعل الله هكذا مع كافة الأشرار؟ السبب هو أن الله يفسح لهم المجال لكي يصيروا إلى الأفضل أثناء فترة انتظارهم وخشيتهم عندما ترعبهم رؤية عقوبة الآخرين، وإذ يمجدون طول أناة الله ويحترمون لطفه وطيبته ربما يكفون عن شرورهم. ولكن ربما يقول أحدكم أنهم لا يفعلون شيئاً من ذلك. إلا أن اللوم لا يقع على الله، إنما على غفلتهم وعدم انتباههم، لأنهم لا يرغبون في استخدام مثل هذا الدواء القوي لأجل خلاصهم. ولكي تعرفوا أن هذا هو قصد الله، انصتوا: لقد خلط بيلاطس مرة دم الجليليين بذبائحهم، فجاء البعض وأخبروا المسيح بذلك. قال المسيح: "أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من غيرهم؟ كلا أقول لكم بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون" (لو١٣: ٢-٥). ومرة أخرى سقط البرج على ثمانية عشر شخص فقتلهم، فقال المسيح عنهم نفس الشيء: "أتظنون أن هؤلاء وحدهم كانوا خطاة؟ كلا أقول لكم" وبهذا بيّن المسيح أن الأحياء أيضاً كانوا يستحقون نفس العقاب؛ وفي قوله: "إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون"، أظهر أن الله سمح لهؤلاء بالعقاب لأجل هذا الغرض، أي، لكي يرتعب الأحياء مما أصاب الآخرين، فيتوبوا ويرثوا الملكوت. ربما يقول أحدكم: "ما هذا؟ هل عُوقب ذلك الإنسان، لكي أصير أنا أفضل"؟ لا، ليس لأجل هذا السبب، إنما هو عُوقب على خطيئته الخاصة. لكن بالإضافة إلى ذلك صار وسيلة

للخلاص للذين ينتبهون إلى ما أصابه، دافعاً إياهم بالأكثر إلى الخوف مما أصابه. الأسياد أيضاً يعملون نفس الشيء؛ فهم بضربهم أحد الخدم يجعلون الباقين يسلكون بصورة أفضل بدافع الخوف. عندما ترى إناساً إما انكسرت بهم السفينة، أو سقط عليهم البيت فسحقهم، أو التهمتهم النيران فماتوا، أو جرفهم النهر، أو فقدوا حياتهم بأية وسيلة أخرى قاسية، ثم بعد ذلك ترى آخرين يرتكبون نفس الخطايا أو أسوأ منها، ولا يعانون من أية محن أو مصائب، ألا يختلط عليك الأمر، وتقول: "لماذا لا يعانون من نفس النتائج في حين أنهم يرتكبون نفس الخطايا"؟ ولكن فكر فيما يلي، إن الله سمح لشخص ما أن يُؤخذ ويُقتَل، وأعد له بذلك في الآخرة عقوبة أخف، أو حتى ربما يعتقه تماماً؛ ولكنه لم يسمح لآخر بمعاناة أي شيء من هذا، لكيما يتيقظ لنفسه بعقوبة ذلك الشخص ويصير أفضل. أما إذا استمر في نفس الخطايا، سوف يجني لذاته عقوبة لا تعرف الرحمة بسبب إهماله وغفلته. والله لا يُلام على عقوبة ذلك الإنسان غير المحتملة. وإذا أنت رأيت رجلاً تقياً باراً يعاني من ضيقات أو من كافة أنواع المصائب التي ذكرناها، لا تجعل همتك تفتر: إن مصائبه تعِد له أكاليل أكثر بهاءً وروعة. باختصار، كل عقوبة، إذا هي أصابت الخطاة، تخفف من ثقل خطاياهم، ولكن إذا أصابت الأبرار، تجعل نفوسهم أكثر سمواً وروعة. فكلاهما ينال منفعة عظمى من الضيقات، بشرط احتمالها بشكر؛ لأن هذا هو المطلوب.

لأجل ذلك نجد أن تاريخ الأسفار الإلهية مليء بأمثلة عديدة من هذا القبيل، حيث نرى أبراراً واشراراً يعانون من المحن والتجارب، حتى إذا رأى الواحد منا ذلك، باراً كان أو خاطئاً، يتعظ بهذه الأمثلة ويحتمل بشجاعة. الكتاب المقدس يريك أناساً أشراراً، البعض منهم كانت حالته رديئة والبعض الآخر كان يتمتع بالرخاء، وذلك لكي لا يجعلك تهتز

برفاهيتهم، لأنك تعلم مما حدث لهذا الرجل الغني (المذكور في المثل) أية نيران تنتظر هؤلاء في الآخرة، إذا هم لم يغيّروا من حياتهم. ولربما يسألني أحدكم: "أليس من الممكن أن نتمتع بالراحة واليسر هنا وفي الآخرة"؟ لا، هذا غير ممكن.

وبسبب أن ذلك غير ممكن، عاش الأبرار حياة كلها تعب وجهاد. "وماذا عن إبراهيم؟"، ربما يقول أحدكم. مَنْ احتمل ضيقات مثلما احتمل إبراهيم؟ ألم يخرج ويتغرب بعيداً عن وطنه؟ ألم ينفصل عن أهل بيته؟ ألم يحتمل الجوع في أرض غريبة؟ ألم ينتقل إبراهيم باستمرار مثل الهائم على وجهه، من بابل إلى ما بين النهرين (ميسوبو تاميا)، ومن هناك إلى فلسطين، ومنها إلى مصر؟ ثم ماذا نقول عن المنازعات التي دارت حول زوجته، والحروب والمذابح التي دارت مع البربر، وأسر أقربائه، ومشاكل أخرى عديدة؟ وعندما جاءه ابنه، ألم يحتمل إبراهيم ضيقة من أقسى الضيقات التي لا تحتمل، عندما أمر بأن يذبح بيديه ابنه الحبيب الذي طالما اشتاق إليه؟ وماذا عن إسحق نفسه الذي كان الضحية؟ ألم يطرده جيرانه باستمرار؟ ألم يفقد زوجته، مثل أبيه، وظل فترة طويلة بدون نسل؟ وماذا عن يعقوب الذي تربى وسط أهله؟ ألم يحتمل يعقوب عذابات أقسى مما احتمله جده إبراهيم؟ ولكي لا يطول الحديث بذكر كل شيء؛ اسمعوا ما يقوله بخصوص حياته برمتها: "قليلة وردية كانت أيام سني حياتي ولم تبلغ إلى أيام سني حياة آبائي" (تك ٤٧:٩). بالإضافة إلى ذلك، فمن من الناس يرى ابنه جالساً على عرش المُلك ويتمتع بمثل هذا المجد، ولا ينسى كل المصائب التي حلت به في الماضي؟ ولكنه بالرغم من ذلك كان يعقوب قد أبلته التجارب لدرجة أنه لم ينس وسط هذا الرخاء العظيم تلك المحن والمشاكل التي مرت به. ثم ماذا عن داود؟ كم من المصائب احتمل؟ ألم يعزف داود على نفس الوتر

الذي عزف عليه يعقوب من قبل عندما قال: "أيام سنينا هي سبعون سنة. وإن كانت مع القوة فثمانون سنة وأفخرها تعب وبلية"؟ (مز ٩٠:١٠). وماذا عن إرميا؟ ألم يلعن يوم مولده بسبب تواتر المحن والتجارب (إر ٢٠:١٤) وماذا عن موسى نفسه؟ ألم يقل في محنته: "فإن كنت تفعل بي هكذا فاقتلني قتلاً"؟ (عد ١١:١٥) وأما عن إيليا، الذي كانت نفسه عالية مثل السماء، الذي فتح باب السماء، ألم يستمر في النوح أمام الله بعد معجزات عديدة، قائلاً: "خذ نفسي لأنني لست خيراً من آبائي"؟ (١مل ١٩:٤٠). لماذا يجب عليّ أن أذكر كل قصة من هذه القصص؟ فلقد جمعها بولس كلها سويًّا ومحّصها قائلاً: ".. طافوا في جلود غنم وجلود معزى، معتازين مكروبين مُذلين؛ وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم" (عب ١١:٣٧،٣٨). باختصار، إنه في غاية الأهمية والضرورة لمن يرجو أن يرضي الله وأن يصير مقبولاً ونقياً، أن لا يسلك حياة سهلة مخادعة فاسقة، إنما حياة كلها عمل وتعب، ويئن بكد كثير وعرق؛ إذ لا يُكلل أحد، يقول بولس: "إن لم يجاهد قانونيّاً" (٢تي ٢:٥). ويقول في موضع آخر: "وكل مَنْ يجاهد يضبط نفسه في كل شيء" (١كو ٩:٢٥)، في الكلام وفي النظر، متجنباً الكلمات القبيحة، والشتيمة، والتجديف، والقذارة. نعرف من كلمات بولس أنه حتى لو لم تصبنا التجارب من الخارج، يجب أن ندرب أنفسنا كل يوم بالصوم، والنسك، وقلة الغذاء، والأطعمة الرخيصة، متجنبين في كل وقت الترف والرفاهية؛ وإلا فسوف لن نرضى الرب. ينبغي أن لا يقول لي أحدكم هذه الكلمات الفارغة، أن فلاناً أو فلاناً يتمتع بخيرات في هذه الحياة والحياة الأخرى: هذا مستحيل بالنسبة للذين يعيشون في الخطيئة ويتمتعون بالثروة والرخاء؛ ولكن إذا وجب أن نقول هذا الكلام عن شخص ما، فلنقله عن الذين يعيشون وسط الضيقات والأحزان إنهم تمتعون بالخيرات في هذه

الحياة وفي الحياة التالية. ذلك أنهم سوف يتمتعون بخيرات الحياة الآتية، عندما ينالون مكافأتهم؛ كما أنهم يتمتعون بخيرات هذه الحياة الحاضرة، عندما يتشجعون برجاء الخيرات التي سوف تكون من نصيبهم في الآخرة، ولا يعطون اهتماماً للمصائب الحاضرة وذلك بسبب انتظارهم للخيرات الآتية.

ولكن دعونا نسمع ما يأتي بعد ذلك: "وفوق هذا كله"، يقول إبراهيم، "بيننا وبينكم هوّة عظيمة قد أثبتت" (لو ١٦:٢٦). حسناً قال داود: "الأخ لن يفدي الإنسان فداء ولا يعطي الله كفّارة عنه" (مز٤٩:٧) إذ أن ذلك مستحيل، ما إذا كنت أخاه أو أباه أو ابنه. انظروا: إبراهيم يسمى الرجل الغني "ابني"، ومع ذلك لم يستطع أن يقوم بدوره كأب؛ والرجل الغني نادى إبراهيم "يا أبي"، ومع ذلك لم يتمتع بما يتوقعه الابن من حنان أبيه: هذا يعلمكم أنه لا العلاقة الأسرية ولا المحبة ولا الشفقة ولا أي شيء آخر يستطيع أن يقدم يد العون لمن خدعته حياته وغررت به.

أنا أقول هذا لأن أناساً كثيرين غالباً ما لا ينتبهون عندما ننصحهم بالتيقظ لأنفسهم وبالرزانة، بل ويسخرون من نصيحتنا قائلين: "سوف تدافع عني في ذلك اليوم؛ أنا أثق من ذلك، أنا لست بخائف". ويقول آخر: "إن أبي مات شهيداً"؛ وآخر: "إن قريبي أسقف"؛ بل وآخرون يذكرون في صفهم كل أفراد عائلاتهم. إلا أن كل هذه الادعاءات باطلة؛ لأن فضيلة الآخرين سوف لن تتمكن من مساعدتنا في ذلك اليوم. تذكروا هؤلاء العذارى، اللواتي لم يشركن الأخريات في زيتهن؛ فهؤلاء دخلن إلى العرس، أما الأخريات فأغلق عليهن خارجاً (مت ٢٥:١-١٣). إنه لخير عظيم أن تضع رجاء خلاصك في أعمالك البارة الخاصة بك؛ ففي الآخرة لن يدافع عنا أي صديق. إذا كان الله قد قال لإرميا: "لا تصلِ لأجل هذا الشعب" (إر٧:١٦)، حتى هنا حيث الفرصة متاحة لتغيير

طرقهم، فكم بالأكثر سوف يقول نفس الشيء في الآخرة؟ ماذا تقول: إن أباك شهيد؟ هذه الحقيقة في حد ذاتها سوف تدينك بالأكثر، لأنك وأنت لديك مثال الفضيلة في بيتك، مع ذلك ها أنت تقدم ذاتك كمن هو غير جدير بفضيلة أبيه. ولكن أنت لديك صديق ذو مكانة مرموقة ومكرم؟ هو لن يتمكن من الوقوف في صفك في ذلك اليوم. فكيف إذن يقول الرب: "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم حتى إذا فنيتم (أو مُتم) يقبلونكم في المظال الأبدية" (لو ١٦: ٩). ليست الصداقة هنا هى التي سوف تدافع عنك، إنما إعطاء الصدقة والإحسان. إذا كانت الصداقة في حد ذاتها تستطيع أن تشهد في صفك، لقال المسيح ببساطة: "اصنعوا لكم أصدقاء"؛ ولكن في الواقع، لكي يبيّن أن الصداقة وحدها لا تشهد في صفنا، أضاف: "بمال الظلم". لعل أحدكم يقول: "أنا أستطيع أن أصنع لي صديقاً بدون مال، بل وصديقاً أفضل ممن أصنعه بالمال". غير أن المسيح لكي يعلمكم أن الصدقة هى التي تقف في صفكم، وأيضاً أعمالكم الصالحة، أوصاكم بأن لا تثقوا فقط في صداقة القديسين، إنما أيضاً في الصداقة التي تكسبونها بالمال. إذ عرفنا كل هذه الأشياء، يا أحبائي، دعونا نتيقظ لأنفسنا بكل عناية واهتمام. إذا عُوقبنا، فلنشكر. وإذا عشنا في رخاء، فلنحصن أنفسنا؛ ومتى تنبهنا لأنفسنا من جرّاء العقوبات التي تحل بالآخرين، فلنشكر ولنقدم توبة وندماً واعترافاً متواصلاً وإذا أخطأنا في أي شيء في حياتنا الحاضرة، فلنترك خطايانا، وإذ نغسل بحماس عظيم كافة أوساخ حياتنا، فلندعُ الله أن يحسبنا مستحقين عندما ننطلق من هذه الحياة إلى هناك، حيث نتمتع مع لعازر بحضن إبراهيم أبي الآباء وبعشاء الخيرات الأبدية ولا يكون نصيبنا مع الرجل الغني. يا ليتنا نصل جميعاً إلى ذلك، بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح، الذي له المجد مع الآب والروح القدس إلى دهر الدهور. آمين.

يتضح من هذه الأمثلة جميعها أن شيئاً لن يفيدنا بعد الموت إذا لم تكن لنا أعمال صالحة؛ حتى ولو قدمنا توسلات وتضرعات أو بقينا صامتين، ففي الحالتين سوف يصدر ضدنا الحكم بالعقوبة والعذاب. اسمعوا، إذا، كيف قدم هذا الرجل الغني طلبين لإبراهيم ولم يُستَجَبْ له في كليهما. أولاً قدم التوسلات لأجل نفسه، وذلك عندما قال: "أرسل لعازر"، وبعد ذلك لم يطلب لأجل نفسه إنما لأجل إخوته؛ إلا أنه لم يحظَ باستجابة أيٍّ منهما. الطلب الأول كان من المستحيلات؛ أما الثاني، بخصوص إخوته ، فلم يكن له داع. على كل حال، إذا كنتم توافقونني، دعونا نستمع بانتباه لهذه الكلمات. عندما يُحضِرَ الحاكمُ شخصاً مداناً في وسط السوق، ويجمع الناس حوله ويفحص الرجل المتهم، تجد أن الكل يركض سريعاً ويتجمعون معاً بحماس لسماع أسئلة القاضي وإجابات المتهم، فكم وكم بالأولى يجب أن ننصت بتدقيق لهذه الحالة، لنسمع ما يطلبه هذا المتهم (أعني الرجل الغني) وما هى الإجابة التي يقدمها "القاضي العادل" على فم إبراهيم. ذلك أن إبراهيم لم يكن هو القاضي في هذه الحالة، برغم أنه نطق بالكلام. في قاعات المحاكم الخارجية في هذا العالم، عندما يُحاكم البعض كلصوص وقتلة. ينص القانون على الاحتفاظ بهم بعيداً عن مرأى القاضي ولا يسمح لهم بسماع صوته (وذلك لإلحاق الخزي بهم بالإضافة إلى باقي العقوبات)، فيحمل الساعي أسئلة القاضي إليهم ويحمل للقاضى إجابات المدعى عليهم وهذا ما حدث في هذه الحالة أيضاً. أن المتهم (الرجل الغني) لم يسمع الله يتحدث إليه، إنما كان إبراهيم هو الرسول (أو الساعي) الذي يحمل كلمات القاضي للمدعي عليه. لم يقل إبراهيم ما قاله على مسئوليته الخاصة، إنما قرأ نص القوانين الإلهية للرجل الغني، وأعلنه بالرفض الآتي من فوق. لأجل ذلك لم يستطع الغني أن يجيب بأي شيء.

فلننصت بانتباه، إذاً ، لما قالوه. أنا أتعمد الإطالة في هذا المثل، ولا أتركه برغم أن هذا هو اليوم الرابع، لأنني أرى في هذه الأحاديث منافع جمة تفيد الأغنياء والفقراء، كما تفيد الذين ينزعجون أمام رخاء ورفاهية الأشرار وأمام فقر وضيقة الأبرار. لا يوجد شيء من شأنه أن يضايق ويعثر أغلب الناس أكثر من حقيقة أن الأغنياء يعيشون في الشر ومع ذلك يتمتعون بثروات طائلة، في حين أن الأبرار والأتقياء الذين يعيشون في الفضيلة ينحدرون إلى أقصى درجات الفقر ويتحملون مصائبَ أخرى لا حصر لها أسوأ من الفقر. غير أن هذا المثل فيه ما يكفي من العلاجات، ومن ضبط الذات بالنسبة للأغنياء، ومن العزاء بالنسبة للفقراء. فهو يعلّم الأغنياء أن لا ينتفخوا أو يفتروا، في حين أنه يعزي ويريح الفقراء في وضعهم الحالي. هو يحث الأغنياء على أن لا يتكبروا عندما لا يدفعون غرامة شرورهم في هذه الحياة، إذ ينتظرهم عذاب أليم في الآخرة. وهو يناشد الفقراء أن لا يتضايقوا من رخاء الآخرين، وأن لا يعتقدوا بأن الأمور البشرية تسير بدون تدبير إلهي عندما يرون الرجل التقي تسوء أحواله في هذه الحياة أما الشرير والقذر فيتمتع على الدوام بثروات لا بأس بها، كلٌ منهما سوف ينال ما يستحقه في الآخرة؛ الأول سوف ينال إكليل صبره ومثابرته، أما الثاني فسوف ينال العقوبة والمجازاة على شروره.

ارسموا أمامكم هذا المثل، يا أيها الأغنياء ويا أيها الفقراء: الأغنياء فليصوّروه على جدران منازلهم؛ والفقراء، على جدران قلوبهم. وإذا طواه النسيان، صوّروه مرة أخرى في ذاكرتكم. أو بالحرى فلتصوروه يا أيها الأغنياء أنتم أيضاً على قلوبكم عوضاً عن بيوتكم، واحملوه معكم باستمرار. سوف يكون هذا المثل مدرسة لكم، والدرس الأول لكم في

الفلسفة بكل أنواعها. إذا رسمناه على الدوام في قلوبنا، سوف لن تـتمكن مسرات الحياة الحاضرة أن تجعلنا ننتفخ ولا أحزانها أن تجعلنا نكتئب وتفتر همتنا؛ بل سوف نتعامل مع هذين الوضعين وكأنهما صـورتان مرسومتان على الجدران، تماماً كما أننا عندما نـرى الغنـي والفقيـر مرسومين على الجدران، لا نحسد الأول أو نرذل الآخر، لأن ما نـراه هى ظلال وليست حقيقة واقعية؛ هكذا أيضـاً عنـدما نعـرف الطبيعـة الحقيقية للغِنَى والفقر، للمجد والازدراء، ولكل الحالات الأخرى البـاهرة والمظلمة، سوف نتحرر من الاضطراب الذي تحدثه كل حالة من هـذه في داخلنا. هذه الأمور كلها خادعة ومضللة أكثر من الظلال. الإنسـان النبيل والمتسامي في روحه سوف لن يتكبر إذا نال المجد والشهرة كمـا أنه سوف لن تفتر همته بالظروف المحيطة أو بالازدراء والتحقير.

حان الآن الوقت لنسمع باقي كلام الرجل الغني: "أسألك إذا يا أبـتِ" قال الغني (أي، أترجاك، أتوسل إليك، أتضرع إليك)، "أن ترسل لعـازر إلى بيت أبي، لأن لي خمسة إخوة ، حتى يحذرهم لكيلا يأتوا هم أيضـاً إلى موضع العذاب هذا" (لو ١٦: ٢٧،٢٨). بما أن الرجل الغني فشل فـي نوال ما طلبه لنفسه، فهو الآن يتوسل لأجل الآخرين. انظروا كيف صار محباً ولطيفاً بسبب العذابات التي حلت به. الرجل الذي احتقـر لعـازر وهو موجود أمامه، الآن يهتم بالآخرين وهم غائبون عنه. الرجل الـذي أهمل لعازر الملقى أمام عينيه، الآن يتذكر الذين لا يراهم، ويتوسل عنهم بحماس واهتمام كبيرين حتى تنفتح بصـيرتهم مسـبقاً لكـي يتجنبـوا المصائب التي سوف تحل بهم. فهو يطلب أن يُرسل لعازر إلـى بيـت أبيه، حيث الميدان وحلبة المصارعة التي ظهرت فيها فضـائل لعـازر وكأنه يقول: دعهم يرونه مكللاً بالنصر، هؤلاء الذين نظروا صـراعه.

ليكن شهود فقره وجوعه وضيقاته التي لا تُعد هم أنفسهم شهود كرامتــه وتحوّله وكل مجده، حتى متى تعلموا شيئاً في الحالتين وعرفوا أن شئوننا لا تقتصر فقط على الحياة الحاضرة، يعدّون أنفسهم لكيما يتجنبــوا هــذا العذاب وهذه العقوبة.

فماذا كانت إجابة إبراهيم؟ "عندهم موسى والأنبياء ليســمعوا مــنهم" (لو١٦: ٢٩). وكأنه يقول: "أنت لا تهتم بإخوتك أكثر من الله الذي خلقهم. فلقد أعطاهم عــدداً كبيــراً مــن المعلمــين لينصــحوهم، ويرشــدوهم ويحذروهم". بماذا أجاب الرجل الغني على ذلك: "لا يا أبي إبراهيم. بــل إذا مضى إليهم واحد من الأموات سوف يصدقونه" (لو١٦: ٣٠). وهذا ما يقوله أغلب الناس. يُوجَد الآن مَنْ يقولون: "مَنْ جاء من العالم الآخــر؟ مَنْ قام من الأموات؟ مَنْ يخبرنا بما يجري في الجحيم؟ " كم من الأسئلة الخطيرة مثل هذه كانت تدور في ذهن الرجل الغني وهو يعــيش وســط الرخاء والرفاهية في العالم؟ لم يطلب الغني فقط أن يرى أحداً قام مــن الأموات؛ بل وعندما كان يستمع إلى الأسفار الإلهية كان يــزدري بهــا، وكان يسخر منها، وكان يعتبرها مجرد حكايات. لذلك، ومما كان يشعر به بنفسه، كوّن فكرته بخصوص إخوته. وكأنه يقول: "هم أيضاً يخمّنون هكذا مثلي؛ ولكن إذا ذهب إليهم واحد من الموتى، سوف يصدقونه، ولن يسخروا منه، إنما سوف ينتبهون في المقابل لما يقــول". فبمــاذا أجابــه إبراهيم إذاً؟ "إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات ينصتون إليه" (لو١٦: ٣١). ولقد أثبت اليهود صــحة هــذا الكلام؛ وهو أن الذي لا يسمع من الأسفار الإلهية لن ينصت حتى لمَــنْ يقوم من الأموات؛ إذ أنهم عندما لم يسمعوا لموسى والأنبياء، لم يصدقوا أيضاً عندما رأوا بعض الموتى يقومون. بل في المقابل، لقد أرادوا مــرة

أن يقتلوا لعازر [أخا مريم ومرثا] (يو١٢:١٠)؛ وفي مرة أخرى تهجموا على الرسل، برغم أن موتى كثيرين قاموا عند ساعة الصليب (مت ٥٢:٢٧).

ولكي تعرفوا سبباً آخر لماذا يجب أن تعتبر تعاليم الكتاب المقدس أكثر جدارة بالتصديق من شهادة الذين يقومون من الموت، ادرسوا هذه الحقيقة، وهي أن كل ميت هو خادم، أما ما تقوله الأسفار فهو كلام "السيد" (الرب). لذلك حتى إذا قام واحد من الأموات، أو حتى إذا نزل ملاك من السماء، فإن الأسفار الإلهية أكثر جدارة بالتصديق عن أي منهما (قارن غل ١:٨). ذلك أن سلطة الأسفار الإلهية هي مستمدة من "سيد" الملائكة الذي هو رب الأحياء والأموات. إن معرفة عذابات الجحيم لا يستفيد منها الأشرار إنما يستفيد منها الأبرار المؤمنون. بجانب ذلك، وبالإضافة إلى ما قلناه، نستطيع أن نؤكد بالمقارنة مع ما يحدث في قاعات محاكم هذا العالم أن الذين يطلبون حضور الموتى من العالم الآخر إنما يطلبون شيئاً لا ضرورة له على الإطلاق. ففي قاعات المحاكم، نسمع كل يوم أن أحداً قد عُذب، وأن ممتلكات الآخر صادرتها الدولة، وآخر حُكم عليه بالعمل في المناجم، وآخر قتلوه حرقاً، وآخر قضى نحبه بوسيلة أخرى من العذاب أو العقوبة. وبرغم كل ذلك، ومع أن الأشرار والمجرمين والمشعوذين يسمعون بهذه العقوبات، إلا أنهم لا يفيقون لأنفسهم. ماذا أقول، إن الذين لم يختبروا بعد هذه العذابات لا يفيقون إلى أنفسهم؟ كثيراً ما يحدث بالفعل أن الذين قُبض عليهم وهربوا من العقوبة، الذين حفروا لهم ممراً إلى خارج السجن وهربوا، رجعوا إلى نفس أسلوب حياتهم بل وارتكبوا جرائم أشنع من الأول.

لأجل ذلك دعونا لا نطلب أن نسمع من الأموات ما تخبرنا به الأسفار الإلهية كل يوم بوضوح أكثر بكثير جداً. ذلك أن الله إذا كان يرى أن الأموات إذا قاموا يستطيعون أن يقدموا يد العون للأحياء، لما حذف أو أهمل مثل هذه المنفعة العظمى، هو الذى يدبر كل شيء لخيرنا. بجانب ذلك، إذا كان الموتى سوف يقومون باستمرار، ويخبروننا بكل ما يحدث في العالم الآخر، فبمرور الوقت سوف نزدري بهذا الأمر نفسه. وأيضاً لاستطاع إبليس بكل سهولة أن يُدخل تعاليمه الشريرة. بهذه الوسيلة يستطيع أن يجعل الناس يرون أشباحاً؛ أو يستطيع حتى أن يعد أشباحاً وكأنهم ماتوا ودُفنوا، ثم يجعلهم يظهرون مرة أخرى وكأنهم قاموا من الأموات وبذلك يجعل كل ما يريد أن يوصّله لأذهان المخدوعين مقبولاً ومعقولاً جداً. فكم بالأحرى إذا قام الموتى بالفعل وأقنعوا أذهان البشر بأن المنتقلين عادوا مرة أخرى، مما يفسح المجال لإبليس اللعين أن يدبر خططاً وخداعات لا حصر لها يدخلها في حياتنا. لأجل ذلك أغلق الله الأبواب ولم يسمح لأي من المنتقلين أن يعود مرة أخرى ليخبر بما يحدث في الاخرة، لئلا يتخذ إبليس هذا منطلقاً له فيبث كافة تعاليمه. فعندما كان هناك أنبياء، أقام إبليس أنبياء كذبة؛ وعندما كان هناك رسل، أقام رسلاً كذبة؛ وعندما ظهر المسيح، أقام مسحاءً كذبة. كذلك عندما كانت تُعلن العقائد الصحيحة، كان إبليس يُدخل تعاليم وعقائد فاسدة، باذراً الزوان والأعشاب الضارة في كل مكان (قارن مت ١٣:٢٥). فإذا كان هذا الأمر سوف يحدث أيضاً، لحاول إبليس أن يتشبه به كذلك، بخدعاته الخاصة، ليس عن طريق إقامة الأموات بالفعل، إنما عن طريق خداع بصر الناظرين بنوع من أنواع السحر والوهم، أو بإعداد بعض الناس (كما قلت) ليتظاهروا بالموت. كان إبليس سوف يقلب كل شيء رأساً على عقب ويخلط كل الأمور خلطاً كاملاً.

غير أن الله الذي سبق فعرف هذه الأمور كلها لم يفسح لإبليس المجال للهجوم. ولكي يجنبنا ذلك، لم يسمح الله لأي إنسان أن يعود من العالم الآخر ويحدّث الأحياء على الأرض بما يجري هناك. وبهذه الوسيلة يعلمنا الله أن نعتبر الأسفار الإلهية أهلاً للثقة أكثر من أي شيء آخر. ذلك أنه أرانا أعمالاً مقنعة أكثر بكثير جداً من قيامة الموتى. فلقد غيّر الله العالم كله، وطرد الخطأ وأدخل الحق، ولقد قام بذلك كله عن طريق صيادي السمك، كما أنه أمدنا في كل مكان بإعلانات كافية عن تدبيره وعنايته. لذلك، دعونا لا نعتقد أن أمورنا تنتهي مع الحياة الحاضرة، إنما دعونا نؤمن بدون أدنى شك بأن هناك دينونة ومجازاة على كل ما يُعمَل هنا بيننا. هذا الأمر واضح تماماً لكل أحد ولا يختلف عليه اليهود أو الوثنيون أو الهراطقة بل ولا أي كائن بشري. وإذا لم يكن الجميع يدركون بالفعل حقيقة القيامة على وجه صحيح، إلا أن الجميع يتفقون على الدينونة (القضاء)، والمجازاة (الثواب أو العقاب)، وعلى المحاكم التي تنصب في العالم الآتي، وأن هناك مجازاة في الآخرة على ما يُفعل هنا. إذا لم يكن الأمر كذلك، وإذا لم يقصد الله حمايتنا حتى النهاية، فلماذا نشر السموات إذن بهذا الاتساع، وبسط الأرض من أسفل، ومدّ البحار، وسكب الهواء، وأظهر نحونا مثل هذه العناية الفائقة؟

ألا ترى كم من أناسٍ كثيرين غادروا هذا العالم بعد حياة فاضلة ووسط عذابات لا حصر لها دون أن ينالوا أيًّا من الخيرات التي يستحقونها؟ وآخرون، على كل حال، غادروا العالم بعد ممارسة شرور عظيمة، من سرقة أشياء الآخرين، وسلب الأرامل والأيتام والتضييق عليهم، والتمتع بالثروة والرخاء وخيرات لا حصر لها، دون أن يعانوا

حتى من المشاكل العادية. إذاً، متى ينال الأولون مكافأة أعمال برهم، ومتى يعاني الآخرون من عقوبة شرهم، إذا كانت أمورنا تنتهي بانتهاء الحياة الحاضرة؟ الكل يقول إذا كان الله موجوداً (وهو موجود بالفعل)، فهو عادل؛ ومن المتفق عليه أيضاً أنه إذا كان عادلاً، فلابد أن يجازي الأبرار والأشرار بحسب استحقاقهم. ولكن إذا كان الله لابد وأن يجازى الأبرار والأشرار بحسب استحقاقهم، وإذا لم يكن أيٌّ منهما قد نال ما يستحقه في هذه الحياة، لا الأشرار نالوا عقوبة شرهم ولا الأبرار نالوا مكافأة برهم، يتضح إذا أن هناك وقتاً آخر حينما ينال كل منهما المجازاة التي يستحقها.

لماذا وضع الله في ذهن كل منا مثل هذا القاضي المتيقظ والعادل؟ أقصد، الضمير. إذ لا يوجد أي قاض، على الإطلاق وسط البشر يكون متيقظا باستمرار مثل ضميرنا. القضاة الذين من الخارج يفسدهم المال، ويتأثرون بالتملق والمداهنة ، ويضطرون تحت دافع الخوف أن يصدروا أحكاماً كاذبة؛ كما أن عوامل أخرى كثيرة تفسد استقامة قراراتهم. أما محكمة الضمير فلا يمكن أن تخضع لأيٍّ من هذه المؤثرات. فإذا كنت تعطي رشاوي، أو تتملق أحداً، أو تهدد، أو تفعل أي شيء آخر، فإن هذه المحكمة (أي، الضمير) سوف تصدر حكماً عادلاً ضد ميولك الخاطئة. الذي يرتكب الخطيئة يدين نفسه بنفسه حتى دون أن يتهمه آخر. وهو يفعل ذلك ليس مرة واحدة، أو مرتين، إنما مرات عديدة، ويستمر هكذا طالما كان على قيد الحياة. وحتى إذا انقضى زمن طويل، فإن الضمير لا ينسى أبداً ما حدث، بل وحتى أثناء ارتكاب الخطيئة، وقبل وبعد ارتكابها، يقف الضمير في مواجهتنا كمن يتهمنا بشدة – وخصوصاً بعد ارتكاب الإثم. في أثناء ارتكاب الخطيئة لا تكون رؤيتها واضحة هكذا

بسبب السكر بلذة الإثم؛ أما بعد ارتكابها والفراغ منها، عندئذ، وخصوصاً بعدما تنطفئ اللذة تماماً، يبدأ منخاس التوبة الحاد ينخسنا بشدة، تماماً عكس ما يحدث للنساء وقت الولادة. ففي حالتهن وقبل الولادة يتعذبن من آلام شديدة ويتطلب الأمر جهداً خارقاً لا يُحتمل، ولكن بعد الولادة تأتي الراحة حينما يكون الطفل قد ولد وسط ذلك العذاب المرير. أما في حالة الخطيئة فالأمر يختلف. إذ طالما كنا نتمخض ونحبل بأغراضنا الفاسدة، نحس باللذة والمتعة؛ ولكن عندما نلد الطفل الشرير، أي، خطيئتنا، عندئذ نتعذب من رؤية ما أنجبناه من الشر والخزي، فتصيبنا آلام أشد بكثير جداً من آلام الولادة التي تشعر بها النساء. لأجل ذلك أرجوكم أن لا تقبلوا أية رغبة شريرة وفاسدة منذ الوهلة الأولى. وإذا قبلناها فلنخنق بذورها سريعاً داخلنا. أما إذا كنا مهملين حتى في ذلك، يجب أن نقتل الرغبة الشريرة وهي ترتكب الخطيئة بالفعل، وذلك من خلال الاعتراف والدموع، ومن خلال اتهام أنفسنا بأنفسنا.

لا يوجد شيء يقضي على الخطيئة مثل اتهام الذات وإدانتها بتوبة ودموع. هل أدنت الخطيئة؟ إنزل عنك حملها. من قال ذلك؟ الله نفسه الذي يحاكمنا قال: "حدّث [أو اعترف] أولاً بخطاياك، فتتحرر" (إش ٤٣:٢٦). لماذا تخجل، لماذا تستحي من الاعتراف بخطاياك، أخبرني؟ أنت لا تعترف بها لإنسان ربما يوبخك أليس كذلك؟ أنت لا تعترف لعبد رفيقك من الممكن أن يكشفك، أليس كذلك؟ لا، إنما أنت تعترف بالأحرى إلى "السيد" (الرب)، الذي يحرسك ويدللك، أنت تكشف جروحك أمام الطبيب. هو لا يجهلها أليس كذلك، حتى ولو لم تعترف بها، لأنه يعرف ويدرك كل شيء حتى قبل أن يتم؟ إذاً فلماذا لا تعترف؟ إن الخطيئة لا

تصير أكثر ثقلاً وإزعاجاً بسبب اتهامك لذاتك، أليس كذلك؟ بالحري تصير أسهل وأخف. لهذا السبب يريدك الرب أن تعترف، لا لكي يعاقبك إنما ليغفر لك: لا لكي يعرف خطيئتك (فكيف يكون ذلك وهو يعرف كل شيء؟)، إنما لكي تعرف أنت مقدار الدين الذي يغفره لك. إذا أنت لم تعترف بضخامة الدين، سوف لن تكتشف فيض النعمة. وكأنه يقول لك: "أنا لا أجبرك على الوقوف وسط المسرح وحولك شهود كثيرون؛ اذكر خطيئتك لي على انفراد، لكي أشفي جروحك وأخفف آلامك". لأجل هذا السبب وضع الله فينا الضمير وهو أكثر حناناً من الأب. ذلك أن الأب عندما يوبخ ابنه مرة أو مرتين أو ثلاث أو حتى عشر مرات، ثم يراه بعد ذلك مستمراً في خطأه، يتخلى عنه ويحرمه من الميراث، ويطرده من البيت، ثم يقطعه تماماً من الأسرة؛ أما الضمير فلا يفعل ذلك. فحتى إذا حدثك مرة أو مرتين أو عدة مرات، وأنت لم تلتفت له، فهو سوف يحدثك مرة أخرى، وسوف لن يكف عن ذلك حتى آخر نسمة من حياتك. ففي البيت، وفي الطريق، وعلى المائدة، وفي السوق، أو في الشارع، بل وحتى في أحلامنا يضع الضمير أمامنا صور ومظاهر خطايانا.

انظر إلى حكمة الله. فهو لم يجعل اتهام ضميرنا لنا أمراً مستمراً على الدوام (لأننا سوف لن نتحمل ثقل التوبيخ المستمر)، كما أنه لم يجعله ضعيفاً لدرجة أنه يتخلى عن التوبيخ بعد المرة الأولى أو الثانية. إذا ظل الضمير ينخسنا كل يوم وكل ساعة، سوف نموت من شدة الإحباط؛ أما إذا توقف الضمير عن توبيخنا بعد تذكرتنا مرة أو مرتين، سوف لن ننتفع كثيراً. لأجل ذلك جعل الله هذا التوبيخ متواصلاً أو متواتراً، أى متتابعاً على فترات [CONTINUAL]، وليس دائماً باستمرار [NOT CONTINUOUS] : جعله متواصلاً

[CONTINUAL] حتى لا نسقط في الإهمال والكسل، إنما نكون باستمرار متيقظين ومتنبهين حتى النهاية؛ ولم يجعله دائماً باستمرار (أي بدون انقطاع) [CONTINUOUS] أو على فترات متلاحقة عن قرب، لئلا نسقط، بل أفسح الله لنا المجال لكي نلتقط أنفاسنا في فترات الراحة والتعزية. كما أن عدم الشعور بأي ألم بسبب خطايانا هو أمر قاتل ويولد في النفس أقصى درجات اللاحس واللامبالاة، كذلك التعرض باستمرار لتوبيخ الضمير بما يفوق مقدرة احتمالنا هو أمر ضار أيضاً.

إن الإحباط الشديد جداً كثيراً ما يؤدي بنا إلى الخروج عن أحاسيسنا الطبيعية، وإلى الإغراق النفسي، ويجعلنا غير نافعين لأي عمل صالح. لأجل ذلك جعل الله توبيخات الضمير تباغتنا على فترات، لأنها تكون في غاية القوة وتنخس الخاطيء بشدة أكثر من أي منخاس. ليس فقط عندما نخطيء نحن أنفسنا، بل وأيضاً عندما نرى الآخرين يرتكبون خطايا مثل خطايانا، يثور الضمير بشدة ويصرخ في وجهنا بكل حماس. إن الفاسق أو الزاني، أو اللص، ليس فقط عندما يُتهم هو نفسه، بل وحتى حينما يسمع آخرين يُتهمون بنفس جريمته، يتخيل أنه هو الذي يُجلد بذلك الكلام، متذكراً خطاياه الخاصة من التوبيخ الواقع على الآخرين. يُستدعى شخصٌ آخرٌ للمثول أمام المحكمة، فيشعر هذا الإنسان الذي لم يستدعه أحد على الإطلاق أن الجلد واقع على ظهره هو، هذا إذا كان قد تجرأ وارتكب نفس جرائم الشخص الأول. نفس الأمر ينطبق بالفعل على الأعمال الصالحة والمستقيمة، فعندما ينال آخرون المجد والأكاليل، يفرح ويُسرّ الذين عملوا نفس الأعمال الصالحة، شاعرين بأن المجد الذي كان من نصيب هؤلاء هو يختص بهم هم أيضاً وبنفس الدرجة. ماذا يكون أكثر بؤساً وشقاءً من الخاطيء الذي عندما يرى الآخرين يُتهمون، ينسلُّ

هو خلسة ليختبئ؟ وماذا يكون، في المقابل، أكثر بركة من الإنسان التقي الفاضل الذي عندما يرى الآخرين يُمجَّدون، يتهلل ويفرح هو نفسه، متذكراً أعماله هو الخاصة المستقيمة وذلك من الفرح والتهليل الذي يتمتع به الأبرار الآخرون؟ هذه هي أعمال حكمة الله، هذه هي علامات عنايته العظيمة. ذلك أن التوبيخ هو المرساة المقدسة التي يتمسك بها ضميرنا، فلا يدعنا في النهاية نغرق في لجج الخطيئة. ليس فقط أثناء ارتكابنا الخطيئة بالفعل، بل وحتى بعد مرور سنوات عديدة، كثيراً ما يذكرنا ضميرنا بخطايانا القديمة. سوف أقدم لكم أدلة واضحة على ذلك من الأسفار الإلهية ذاتها.

حدث مرة أن إخوة يوسف باعوه، برغم أنهم لم يوبخوه على شيء سوى أنه رأى أحلاماً تتنبأ بالمجد الذي سوف يحظى به في المستقبل. قال يوسف: "رأيت حِزَمكم تسجد لحزمتي" (تك ٣٧:٧). كان يجب على إخوته بالفعل أن يحرسوا يوسف لأجل هذا السبب، لأنه سوف يصير تاجاً للعائلة كلها، والأكثر شهرة في ذلك الجيل كله. غير أن الحسد هذه هي شيمته: أن يحارب ضد مصلحته الذاتية. الإنسان الحسود يفضّل أن يعاني من متاعب لا حصر لها أحرى من أن يرى قريبه يتمتع بسمعة حسنة، حتى لو كانت تلك السمعة تعود بالخير على ذلك الحسود نفسه. مَنْ يكون أشقى من مثل هذا الإنسان؟ فهذه كانت مشاعر إخوة يوسف. إذ عندما رأوه قادماً من بعيد، يحمل لهم الطعام، قالوا بعضهم لبعض: "هلم نقتله.. فنرى ماذا تكون أحلامه" (تك ٣٧:٢٠). ذلك أنهم إذا لم يدبروا هذا الأمر ضده، ولم يحيكوا خديعتهم، ولم يُحكموا أغراضهم المخزية، لما استطاعوا معرفة قوة تلك الأحلام. لأن ارتقاء عرش مصر بدون محن وضيقات ليس بالأمر العظيم جداً، مثل أن يرتقي الإنسان

نفس العرش من خلال عقبات ومعوقات كثيرة بهذا الشكل. فإذا لم يتآمر إخوته ضده، لما باعوه إلى مصر. وإذا لم يبيعوه إلى مصر، لما وقعت امرأة سيده في محبته. وإذا لم تقع امرأة سيده في محبته، لما ألقى بيوسف في السجن، ولما فسر الرؤى، ولما حاز على السلطة الملوكية. ولو لم ينل يوسف ذلك السلطان الملوكي، لما جاء إخوته لشراء القمح وسجدوا له. هكذا وبسبب أنهم حاولوا قتله، لأجل هذا السبب بعينه عرفوا صدق أحلامه. ماذا إذن؟ هل صاروا هم أدوات لكل الخيرات التي سوف يحظى بها أخوهم ولذلك المجد وتلك الرفعة التي صارت له؟ كلا على الإطلاق. فهم من جانبهم دبروا تسليمه للموت، وللحزن، وللعبودية، ولأسوأ نهاية شريرة؛ إنما استخدم الله الذي يدبر الخير بمهارة، شرور أخوته لصالح يوسف الذي دبروا أن يبيعوه.

ولئلا يظن أي إنسان أن هذه الأمور وقعت بمحض الصدفة، أو من خلال تقلب الظروف، استخدم الله نفس الأشخاص الذين اعترضوا على تلك الأمور وحاولوا إعاقتها، لكي يحقق بواسطتهم الأمور ذاتها التي حاولوا منعها، مستخدماً أعداء يوسف كأدوات في صالحه ولتحقيق مصالحه. ومن هذا تعرفون أن ما خططه الله لا يستطيع أحد أن يبطله، ولا يستطيع أحد أن يردّ يد الله الممدودة (إش ١٤:٢٧). لأجل ذلك، عندما يتآمر الناس ضدك، لا تيأس أو تتضايق، إنما تذكر أن المؤامرات تؤول للخير في النهاية، بشرط أن تحتمل بنبلٍ كل ما يأتي عليك.

هكذا أنت ترى أنه حتى في هذا العالم أدى الحسد إلى المُلك، وأن الغيرة جلبت الإكليل وأعدت العرش. نفس الأشخاص الذين تآمروا ضد يوسف هم الذين دفعوه دفعاً إلى تلك الوظيفة السامية. فصار الضحية يملك مثل ملك، في حين صار المتآمرون عليه يخدمونه مثل العبيد.

يوسف نال التبجيل الذي قدمه إليه إخوته. أنت ترى أنه عندما تحل بك المشاكل المتواصلة التي تأتي وراء بعضها البعض بسرعة، يجب عليك أن لا ترتبك، وأن لا تتضايق، إنما انتظر حتى النهاية. إن الخاتمة سوف تكون بلا شك مكللة بسخاء الله العظيم جداً، فقط إذا أنت احتملت ما يحدث لك في ذلك الوقت بشكر. يوسف أيضاً، برغم أنه تعرض لأعظم المخاطر بسبب أحلامه تلك، وبرغم أنه بيع من إخوته، وهاجمته امرأة سيده، وألقى به في السجن، لم يقل لنفسه: "ما هذا الذي يجري على الأرض؟ تلك الأحلام كانت خدعة، لقد نفيت من وطني. لقد حُرمت من الحرية. لأجل الله لم أستسلم لامرأة سيدي عندما ألحّت عليّ أن أزني معها. وبسبب ضبطي لذاتي وبسبب فضيلتي ها أنا أعاقب. والله لم يحرسني، ولم يمد لي يده؛ لا بل وسمح بأن أسلم للقيود الثقيلة وللمصائب المتلاحقة. فبعد الحفرة جاءت العبودية، وبعد العبودية المؤامرة، وبعد المؤامرة الاتهام الباطل، وبعد الاتهام السجن". لا شيء من هذا كله دفع بيوسف إلى الارتباك وأن تختلط الأمور في عينيه؛ بل استمر يوسف في شجاعته وفي رجائه، عالماً أن كلام الله لا يسقط أبداً.

كان الله قادراً على تحقيق كلامه في نفس اليوم؛ ولكن لكيما يظهر قوته وإيمان عبيده، سمح بمرور وقت طويل وبحدوث عقبات كثيرة. بهذه الطريقة تعرفون قوة الله الذي يتمم إعلاناته عندما يفقد الناس رجاءهم في ذلك، وتعرفون صبر وإيمان خدامه، الذين لا يفقدون رجاءهم الصالح بسبب أي شيء يصيبهم أثناء ذلك. فكما قلت، لقد انسحب إخوة يوسف. ولقد دفعهم الجوع دفعاً أمامه مثل الشرطي ليوقفهم أمام يوسف. أرادوا شراء القمح، فماذا قال لهم يوسف؟ "أنتم جواسيس" (تك ٤٢: ٩). قالوا في أنفسهم "ما هذا؟ جئنا لنشتري طعاماً، وها نحن

نعرّض حياتنا للخطر؟ "هكذا بالمثل، كما أنه أحضر لكم طعاما، وعرّض حياته للخطر. إلا أنه احتمل بالفعل، فى حين أنكم تتألمون من ذلك فقط في المظهر. هو لم يكن عدوّاً لكم، إنما اتخذ دور العدو ليعرف بالتدقيق أخبار الأسرة. ولأن يوسف كان يعرف أنهم صاروا أشراراً وقساة القلوب نحوه، ولم ير بنيامين معهم، وخوفاً من أن يكون الغلام قد قاسى منهم ما قاساه هو أولاً، أمر يوسف بربط أحدهم والاحتفاظ به، أما الآخرون فسمح لهم بحمل القمح والعودة إلى وطنهم. ولقد هددهم يوسف بالموت إذا لم يحضروا معهم أخاهم الصغير (تك ٤٢:١٩،٢٠). فعندما حدث هذا، وقال يوسف: "اتركوا أحدكم هنا وأحضروا أخاكم. وإذا لم تفعلوا ذلك موتاً تموتون"، ماذا قالوا بعضهم لبعض؟ "حقًّا إننا مذنبون إلى أخينا الذي رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا" (تك ٤٢:٢١). هل ترون كيف تذكروا خطيئتهم بعد مرور سنوات عديدة؟ كانوا قد قالوا لأبيهم من قبل: "إن وحشاً رديئاً افترس يوسف" (انظر تك ٣٧:٣٢،٣٣)؛ ولكن في الوقت الذي كان فيه يوسف حاضراً وسطهم ويسمعهم، وبّخوا أنفسهم على تلك الخطيئة. أي أمر غير متوقع أكثر من هذا؟ سجن بدون محاكمة، دفاع بدون اتهام ، دليل دون شهود، إذ أن نفس الرجال الذين ارتكبوا ذلك الفعل ها هم يفحصون ذواتهم ويكشفون ما عملوه في السر. من حثهم على ذلك، من أجبرهم على كشف ما فعلوه منذ زمن طويل جداً؟ أليس من الواضح أن الضمير، ذلك القاضي الذي لا يمكن خداعه، كان على الدوام يربك أذهانهم ويقلق نفوسهم؟ والإنسان الذي حاولوا قتله، ها هو يجلس ويقاضيهم في صمت، وهم بأنفسهم يدينون أنفسهم بدون تقديم أي عذر. لقد قبلوا هذه الأمور، إلا أن أحدهم دافع عن نفسه قائلاً: "ألم أكلمكم قائلاً لا تأثموا بالولد ولا تلحقوا به ضرراً لأنه أخونا؟ فهوذا دمه يُطلب الآن من أيدينا" (تك ٤٢:٢٢). حقاً، إن الذي تحدث

معهم (أي، يوسف) لم يذكر شيئاً عن الاغتيال والقتل. فقد جلس ولم يسألهم شيئا من هذا القبيل، إنما استفسر بخصوص أخيه الآخر. إلا أن ضميرهم استغل الفرصة، فثار واستأثر بعقولهم، وجعلهم يعترفون بأعمالهم الطائشة بدون أن يجبرهم أحد. نحن كثيراً ما نختبر نفس الأمر أيضاً، بعدما تكون خطايانا قد انقضى عليها زمن؛ فعندما نمتحن في ظروف صعبة، نتذكر خطايانا السالفة.

إذا عرفنا كل ذلك، دعونا عندما نرتكب أي شر، لا ننتظر المصائب والضيقات أو الأخطار والقيود لكي تذكرنا بذلك، إنما دعونا في كل ساعة وفي كل يوم ننشط هذه المحكمة في داخلنا. دعونا نتهم أنفسنا بأنفسنا ونحاول بكل وسيلة أن نقدم دفاعنا أمام الله. دعونا لا نشك في أمر القيامة والدينونة، ولا نسكت عندما يتحدث الآخرون بذلك الكلام الفارغ، إنما يجب أن نلجم ألسنتهم بكلامنا بكل وسيلة. فإذا كنا سوف لن نجتاز في العقوبة في الآخرة على خطايانا، لما وضع الله مثل هذه المحكمة (أي، الضمير) في داخلنا هنا على الأرض. غير أن هذا الأمر نفسه دليل على محبة الله للبشر. وبما أنه سوف يطالبنا بالحساب في الآخرة عن خطايانا، وضع في داخلنا هذا القاضي العادل الذي لا يعرف التحيز. هذا القاضي عندما يحاكمنا هنا على خطايانا ويجعلنا نصير إلى الأفضل، إنما هو ينقذنا من الدينونة الآتية. وهذا ما يقول بولس أيضاً: "لو حكمنا على أنفسنا لما حُكِمَ علينا" (١كو١١: ٣١) من الرب. لذلك ولكيما لا نُؤدب في الآخرة، ولكيما لا ننال العقوبة والعذاب في الآخرة، فليدخل كل منا إلى ضميره الخاص، ويكشف قصة حياته، ويفحص كل خطاياه بدقة، ويدين نفسه التي ارتكبت مثل هذه الأفعال، ويصحح نواياه وأغراضه، ويضيّق على أفكاره ويحزنها. دعه يبحث

عن عقوبة لخطاياه بإدانة ذاته، بالتوبة الكاملة، بالـــدموع، بـــالاعتراف، بالصوم والصدقة، وبضبط الذات والمحبة والإحسان، حتى نتمكن بكـــل طريقة ممكنة أن نتخلص من كافة خطايانا في هذه الحياة وأن نرحل إلى الحياة الأخرى بملء الثقة واليقين. ليتنا نصل كلنا إلـــى ذلـــك، بالنعمـــة والمحبة التي لربنا يسوع المسيح، الذى يليق له مع الآب والروح القدس المجد إلى دهر الدهور. آمين.

- **ملحوظة:**

بعد العظة الرابعة بوقت قصير وقع زلزال مريع في أنطاكيـــا ممـــا تسبب في كوارث عديدة. لذلك اضطر القديس يوحنـــا أن يبـــدأ عظتـــه السادسة بموضوع الزلزال. ثم استأنف بعد ذلك حديثه في العظة نفســـها على مثل "لعازر والرجل الغني". والترجمة الإنجليزية حـــذفت العظـــة الخامسة لعدم ارتباطها المباشر بموضوع المثل كما جاء في المقدمة.



العظة السادسة للقديس يوحنا ذهبى الفم على مثل " لعازر والرجل الغنى"

هل رأيتم قوة الله، هل رأيتم محبة الله للبشر؟ قوته، لأنه هزّ العالم هزًّا، ومحبته، لأنه جعل العالم المترنح يستقر بثبات مرة أخرى؛ أو بالحري هل رأيتم قوته ومحبته كلتيهما في الحالتين معًا. ذلك أن الزلزال المريع أظهر قوة الله، وتوقف الزلزال أظهر محبة الله، لأن الله هزّ الأرض ثم ثبتها مرة أخرى إذ جعلها تستقيم بعد أن كانت على وشك الانهيار. لقد انقضى الزلزال، ولكن الخوف لعله يبقى؛ ذلك الاهتزاز اتخذ مجراه وانتهى، فلا تدعوا الحذر وروح التحفظ والإفراز يغادركم معه. لقد أمضينا ثلاثة أيام في الصلاة؛ لا تدعوا حماستنا تفتر. هذا هو السبب وراء حدوث هذا الزلزال: رخاوتنا. لقد تراخينا، فاستدعينا الزلزال؛ ثم جددنا حماستنا، فدفعنا عنا غضب الله. فيجب أن لا نتكاسل مرة أخرى، وإلا جلبنا على أنفسنا مرة أخرى غضبه وعقوبته. ذلك أن الله لا يشاء موت الخاطئ، بل أن يتوب ويحيا (حز٣٣:١١). أرأيتم فناء الجنس البشرى؟ عندما جاء الزلزال، فكرت في نفسي وقلت، أين السرقة؟ أين الجشع؟ أين الجبروت والسلطان؟ أين الكبرياء والغرور؟ أين السيادة والتسلط؟ أين الظلم؟ أين سلب المسكين؟ أين غرور الأغنياء؟ أين تسلط الأقوياء؟ أين التهديد؟ أين الخوف؟ في لحظة واحدة من الزمان تمزق كل شئ أسهل من خيوط العنكبوت، كل شيء تناثر، امتلأت المدينة بالصراخ وركض الجميع إلى الكنيسة.

تأملوا لو أن الله إختار أن يدمّر كل شيء، إلى أي حد كنا سوف

نعاني. أقول هذا، لكيما يبقى فينا الخوف من هذه الحوادث محفورًا بعمق في داخلنا، ويحافظ على قدراتنا بثبات. الله جعلنا نهتز، ولكنه لم يُبـــدنا. وإذا أراد الله أن يبيدنا، لما سمح باهتزازنا. ولكن بما أنه لا يريد هلاكنا، جاء الزلزال مثل المنذر الذي ينذر كل أحد مسبقًا باقتراب غضـــب الله، وذلك حتى يجعلنا بالخوف نحسّن سلوكنا ونتجنب العقاب الفعلي. ولقـــد فعل الله الأمر نفسه حتى مع الشعوب الغريبة. "بعد أربعين يومًا تنقلـــب نينوى" (يون ٣:٤). لماذا لم تقلب المدينة يا رب؟ أنت هددت بهلاكهـــا، فلماذا لم تهلكها؟ "لأني لا أريد أن أهلك، لأجل هذا الســـبب بعينـــه أنـــا أهدد". فلماذا تقول ذلك يا رب؟ "أقول ذلك لئلا أتمم بالفعل مـــا أقولـــه؛ فليسبقني كلامي ويمنعني من التنفيذ الفعلي". "بعد أربعـــين يـــوم تنقلـــب نينوى"؛ آنذاك تحدث النبي، واليوم تحدثنا الجدران. أقول هذا، وســـوف أظل أقوله باستمرار، للفقير وللغني معاً: تأملوا قوة غضب الله، وكيـــف أن كل شيء بالنسبة له سهل وميسور؛ ولنكف عن الشر! ففـــي لحظـــة خاطفة من الزمن بدد الله كل ما في عقولنا وكل ما قررنا عمله، وهـــزّ أساسات قلوبنا.

دعونا نتأمل لو أن ما حدث في يوم الزلزال الرهيـــب، لـــم يســـتمر لحظة واحدة من الزمان فقط إنما دهورًا لا نهاية لها، أنهار من النـــار، غضب يتوعد، قوات تجرجرنا إلى القضـــاء حيـــث كرســـي القضـــاء المرعب، والمحكمة التي لا تعرف الرشوة، وحيث تظهر أعمـــال كـــل واحد منا أمام عينيه، وليس من يقدم مساعدة، لا قريب، ولا مشـــير، ولا نسيب، ولا أخ، ولا أب، ولا أم، ولا صديق، ولا أى أحد آخر – فمـــاذا سوف نفعل عندئذ؟ أخبروني. أنا أرعبكم لكي أعد لكم الخـــلاص. لقـــد أحضرت لكم درسًا أكثر حدة من الفولاذ، حتى يتمكن كـــل مـــن عنـــده

قـُرح متقيح أن يستأصله به. ألم أظل أسألكم باستمرار، كما اسألكم الآن، وكما سوف أظل اسألكم على الدوام: حتى متى تتعلقون بأمور هذا العالم؟ أنا أتحدث إلى كل واحد منكم، ولكن بالأخص لمن هم مرضى ولا يلتفتون إلى كلامي. أو بالأحرى، فإن العظة نافعة لجميعكم بدون استثناء: للمريض، لكي تجعله يتعافى، وللسليم الجسم لكي تحفظه من المرض. حتى متى يدوم المال؟ حتى متى تدوم الثروة؟ حتى متى يستمر التفاخر والتباهي؟ حتى متى يدوم السعي المسعور وراء الملذات المادية؟ انظروا، لقد جاء الزلزال: فكيف نفعتكم الثروة؟ لقد تبدد تعب الأغنياء والفقراء معًا. ولقد زالت الممتلكات مع مالكيها، والبيت مع بانيه. صارت المدينة مقبرة للجميع، مقبرة لم تبنها أيدي البنائين إنما أعدها الدمار ذاته. فأين الغنى والثروات؟ أين الطمع والجشع؟ أرأيتم كيف كان كل شيء أضعف من خيوط العنكبوت؟

ولكنكم سوف تسألونني: "أية معونة تقدمها بالوعظ؟ "أنا أقدم المعونة لمن يسمعني. أنا أقوم بمهمتي: فالزارع يزرع. هوذا الزارع خرج ليزرع، فسقط بعض الحبوب على الطريق، وبعضها على الصخر، وبعضها وسط الشوك، إلا أن البعض سقط على الأرض الجيدة (مت ١٣:٣)، فهلكت ثلاثة أجزاء وأنقذ جزء واحد. والزارع لم يتوقف عن الزرع، ولكن بما أن جزءًا واحدًا هو الذي عاش، فالزارع لم يتوقف عن فلاحة الأرض. وهنا أيضًا، بعدما نثرت هذه الكمية الكبيرة من البذور، يستحيل أن لا أحصل على بعض المحصول منها. فإذا لم تستمعوا لي جميعكم، فإن النصف يستمع؛ وإذا لم يكن النصف، فالثلث؛ وإذا لم يكن الثلث، فالعُشر؛ وإذا لم يكن العُشر، بل وحتى إذا واحد فقط من الشعب سمعني، فليسمعني. ليس بالأمر اليسير أن يُنقذ حتى ولو خروف واحد،

لأن ذلك الراعي ترك التسعة والتسعين وراح يبحث عن الخروف الواحد الذي تاه (مت ١٨: ١٢). أنا لا أزدري بأي إنسان؛ فإذا كان شخصٌ واحد فقط، فهو كائن بشري، وهو خليقة الله الحية التي يهتم بها. حتى ولو كان عبدًا، فأنا لا أزدريه؛ أنا لا يهمني طبقته، إنما فضيلته؛ أنا لا يهمني إن كان سيدًا أو عبدًا، إنما تهمني روحه. حتى ولو كان واحدًا فقط، فهو كائن بشري، من أجله نُشرت السماء، وتظهر الشمس، ويتغير القمر، وانسكب الهواء، وفاضت الينابيع بالمياه، وبُسط البحر، والأنبياء أرسلوا، والناموس أعطي. ولكن لماذا أذكر كل ذلك؟ فمن أجله صار ابن الله الوحيد الجنس إنسانًا. لقد ذُبح سيدي وسُفك دمه لأجل الإنسان فهل آتي أنا واحتقره؟ فأي عذر لي إذا فعلت ذلك؟ ألم تسمعوا كيف تحدث الرب مع المرأة السامرية، وتحدث معها كثيرًا؟ (يو ٤: ٧-٤٢). فهو لم يحتقرها لكونها سامرية، إنما اهتم بها لأن لها روحًا. الرب لم يهملها لكونها زانية، بل لقد استفادت من حديثه لأنها كانت في طريقها إلى الخلاص ولقد أظهرت إيمانها.

فبالنسبة لي، سوف لن أكف عن الكلام، حتى ولو لم يكن هناك من يسمعني على الإطلاق: أنا طبيب، أنا أضع المراهم والعلاجات؛ أنا معلم، مطلوب مني أن أقدم النصيحة. مكتوب: "جعلتك رقيبًا لبيت إسرائيل" (حز ٣: ١٧). ألم أنجح في أن أقوّم كل أحد؟ ما شأني أنا بذلك؟ أنا سوف أنال مكافأتي على كل حال. بجانب ذلك، فلقد تحدثت في ظروف قاهرة. لذلك يستحيل أن لا يستفيد ولو واحد فقط من كلامي وسط هذا الحشد الكبير. هذه الحجج والأعذار ذاتها يقدمها المستمعون الكسالى والمهملون. يقول أحدكم: "أنا أسمع كل يوم، ولكنني لا أفعل شيئًا". استمع، حتى ولو لم تفعل شيئًا. فمن الاستماع ربما جاءت

الأعمال أيضًا حتى ولو لم تنفذ ما سمعته، فعلى الأقل أنت تخجل من خطيئتك. حتى ولو لم تفعل بما سمعته، فأنت تغيّر من تصرفاتك ومن موقفك. حتى ولو لم تعمل، فأنت تدين نفسك على عدم التنفيذ. ومن أين جاءت إدانة الذات هذه؟ هل هي ثمرة كلامي؟ عندما تقول: "واحسرتاه، لقد سمعت، ولم أنفذ"، فهذه الـ "واحسرتاه" التي تقولها هي مقدمة التغيير نحو الأفضل. أنت أخطأت: فهل نحت؟ إذًا أنت نلت الغفران عن خطيئتك. "اعترف أولاً بخطاياك لكي تتبرر" (إش ٤٣:٢٦) إذا كنت حزينًا أو مكتئبًا، فالاكتئاب ربما يكون بداية الخلاص، ليس بسبب الاكتئاب، إنما من خلال طيبة ولطف السيد الرب. إن الحزن بالنسبة للخاطيء لا يُعد دفاعًا يُستهان به، مكتوب: "رأيت أنه حزين ومكتئب، فشفيت حزنه" (قارن إش ١٨:٥٧). يا للطيبة التي لا توصف، ويا للصلاح الذي لا يُدرك!! "هو حزن... وأنا شفيته". فهل حزنه يُعد شيئًا عظيمًا؟ لا، ليس هو بالشيء العظيم، إنما أنا وجدتها فرصة لأشفي حزنه. هل رأيتم كيف في لحظة خاطفة من الزمن جمع الله كل شيء سويًّا؟

لذلك تفكروا باستمرار في دواخلكم فيما حدث في ذلك المساء حينما جاء الزلزال. ارتعب الجميع بسبب الزلزال، أما أنا فارتعبت من السبب الذي من أجله حدث الزلزال. هل تفهمون ماذا أقصد؟ هم خافوا من دمار المدينة، وأنهم سوف يموتون؛ أما أنا فخفت لأن الرب غاضب علينا. إن الموت ليس بالأمر المحزن، إنما المحزن هو إثارة غضب الله. لذلك لم أكن خائفًا من الزلزال، إنما من السبب وراء الزلزال؛ ذلك أن السبب وراء الزلزال هو غضب الله، والسبب وراء غضبه هو خطايانا. لا تخافوا قط من العقاب، إنما خافوا الخطيئة التي تجلب العقوبة. فهل

اهتزت المدينة؟ وما أهمية ذلك؟ إنما لا تدعوا ثباتكم يهتز. في حالة الأمراض والإصابات نحن لا نحزن على الذين نالوا الشفاء، إنما على الذين أمراضهم لا شفاء لها . الخطيئة تشبه تمامًا المرض أو الإصابة ؛ العقاب يحل محل الجراحة أو الدواء.

هل تفهمون ماذا أقول؟ انتبهوا: أريد أن أعلمكم كلمة حكمة. لماذا نحزن على الذين يُعاقبون، ولا نحزن على الذين يخطئون؟ إن العقاب ليس بالأمر المحزن مثل الخطيئة، لأن الخطيئة هي سبب العقاب. إذا رأيتم أحدا به قرح متقيح، والدود والصديد يخرجان من جسده، ورأيتموه يهمل جرحه هذا، ثم رأيتم آخر له نفس الإصابة إلا أنه يُعالج على أيدي الأطباء، بالكيّ والجراحة وبالأدوية المُرّة، فعلى من منهما تحزنون؟ أخبروني، على المريض الذي لا يتلقى أي علاج، أم على المريض الذي يُعالج؟ بنفس الطريقة تخيلوا اثنين من الخطاة، الواحد يُعاقب، والآخر لا يُعاقب. لا تقولوا، هذا الإنسان محظوظ وسعيد لأنه غني، ولأنه يسلب ممتلكات الأيتام، ويضايق الأرامل. فهو في الظاهر ليس مريضًا، وهو يتمتع بسمعة طيبة رغم سرقاته، ويتمتع بالكرامة والسلطة، كما أنه لا يعاني من أي متاعب من التي تصيب جنس البشر - لا حمّى، ولا شلل، ولا أي مرض آخر - بالإضافة إلى أن جماعة من الأطفال تحيط به، وهو مرتاح في شيخوخته؛ غير أنه يجب عليكم مع كل ذلك أن تحزنوا عليه بالأكثر، لأنه في الواقع مريض لا يتلقى أي علاج. سوف أخبركم كيف. إذا رأيتم أحدًا مصابًا بداء الاستسقاء، وجسمه منتفخ وطحاله يوجعه، وهو لا يسرع إلى الطبيب، إنما يشرب الماء البارد، ويتناول الأطعمة الدسمة، ويسكر كل يوم، ويحوطه رجال الحرس، ويتسبب في تفاقم مرضه، أخبروني، هذا الرجل هل تدعونه سعيدًا أم تعيسًا؟ ثم إذا

رأيتم شخصًا آخر مصابًا بالاستسقاء، ولكنه يُعالج على أيدي الأطباء بكل عناية، مطهرًا ذاته بالجوع، يتحمل بشجاعة مرارة أدويته التي هي مؤلمة ولكنها تجلب الصحة من خلال الوجع، أفلا تدعون هذا الرجل أسعد حظًا من الرجل الأول؟ نحن متفقون: فالأول مريض لا يتلقى علاجًا، أما الثاني فمريض ولكنه يستفيد من العلاج. غير أنكم ربما تقولون: "ولكن العلاج مؤلم". إنما غرضه مفيد ونافع.

حياتنا الحاضرة هي هكذا أيضًا، إنما يجب عليكم أن تستبدلوا الكلمات فقط لتحل كلمة الأرواح مكان الأجساد، والخطايا مكان الأمراض، ودينونة الله وعقوبته مكان الأدوية والعلاجات المُرّة. ما يفعله الطبيب بالأدوية والجراحة والكيّ، يفعله الله بالتأديب والعقاب. تمامًا كما أن النار كثيرًا ما تستعمل في الكيّ لمنع انتشار المرض، والحديد يقطع اللحم المتعفن مما يسبب الألم ولكن يجلب المنفعة، هكذا يُستخدم الجوع والمرض والمصائب الأخرى الظاهرة عوضًا عن الحديد والنار لمنع انتشار مرض النفس، ولأجل شفائها، على مثال ما يحدث للجسد، لنفترض أن هناك اثنين من الزناة أو الفسقة – تخيلوا الصورة التي تصفها كلماتي – اثنان من الزناة، الواحد غني والآخر فقير. أيهما له فرصة أكبر للخلاص؟ الفقير بدون شك، لا خلاف على ذلك. إذًا، لا ينبغي أن تقولوا: "الرجل الغني يرتكب الزنى وهو غني؛ لذلك ادعوه محظوظًا". يجب بالأحرى أن تدعوه محظوظًا إذا هو ارتكب الزنى وهو فقير، إذا هو زنى وهو جائع؛ عندئذ سوف يكون فقره بمثابة المعلم القوي الذي يعلمه الحكمة. عندما ترى إنسانًا سيئًا يحقق نجاحًا، إبكِ عليه لأنه مصاب بمصيبتين: المرض وعدم شفاء المرض. عندما ترى رجلاً سيئًا يخفق، عزّه، ليس فقط لأنه في طريقه إلى الشفاء، بل وأيضًا لأنه

يكفّر عن الكثير من خطاياه في هذه الحياة. انتبهوا بتدقيق إلى كلامي. كثيرون يكفّرون عن خطاياهم هنا ومع ذلك يُدانون في الآخرة؛ أما البعض فيكفّر عنها هنا فقط، والبعض الآخر في الآخرة فقط. تمسكوا بتعليمي. إذا أنتم فحصتم كلماتي بدقة، سوف تطرحون عن أذهانكم الكثير من الاختلاط والتشويش.

إذا وافقموني، دعونا نستحضر أولاً بيننا ذلك الشخص الذي يُعاقب في الآخرة، أما هنا فيتمتع بالرخاء والرفاهية. فلينتبه الأغنياء والفقراء لكلامي: هذا التعليم مفيد لكليهما. وكدليل على أن الكثيرين يُعاقبون هنا وفي الآخرة، استمعوا للمسيح عندما يقول: "وأية مدينة أو بيت دخلتموه، حين تدخلون البيت سلموا عليه قائلين [سلام لهذا البيت]. فإن كان البيت مستحقًّا فليأت سلامكم عليه؛ ولكن إن لم يكن مستحقًّا فليرجع سلامكم إليكم. ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم، فاخرجوا خارجًا من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم. الحق أقول لكم، ستكون لأرض سدوم وعمورة حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة. وأية مدينة أو بيت دخلتموه فافحصوا من فيه مستحق وأقيموا هناك حتى تخرجوا" (مت ١٠:١١-١٥ بدون ترتيب). يتضح من هذا الكلام أن شعب سدوم وعمورة عُوقبوا في هذا العالم ويُعاقبون في العالم الآخر. وعندما يقول إن سدوم سوف يكون حالها أكثر احتمالاً مما لهؤلاء الناس، يبيّن المسيح أن أهل سدوم يُعذبون ولكن بعذابات أخف مما لهؤلاء الناس.

غير أنه يوجد، على كل حال، البعض الذين يُعاقبون في هذه الحياة فقط، مثل ذلك الرجل الزاني الذي تحدث عنه الطوباوى بولس عندما كتب إلى أهل كورنثوس: "يُسمع مطلقا أن بينكم زنا وزنا هكذا لا يُسمى حتى بين الأمم، حتى أن تكون للإنسان امرأة أبيه. أفأنتم منتفخون

وبالحري لم تنوحوا حتى يُرفع من وسطكم الذي فعل هذا الفعل فإني أنــا كأني غائب بالجسد ولكن حاضر بالروح قد حكمت كأني حاضــر فــي الذي فعل هذا هكذا: باسم ربنا يسوع المسيح إذ أنتم وروحي مجتمعــون مع قوة ربنا يسوع المسيح، أن يُسلم مثل هذا للشيطان لهلاك الجسد لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع " (١كو٥:١-٥). هل رأيــتم كيــف عُوقب هذا الإنسان هنا، ولم يُعاقب في الآخرة؟ وبسبب أن جسده عُوقب في هذا العالم، لم ينل عقابًا في الآخرة.

أخيرًا، أريد أن أريكم الإنسان الذي عاش في رفاهيــة هنــا، لكنــه عُوقب في العالم الآخر. "كان إنســان غنــي " (لــو١٦:١٩). إذا كنــتم تعرفون هذه القصة مسبقًا، انتظروا لتسمعوا التفسير. هذا رصيد لحسابكم وحسابي، أنكم عندما تسمعون المقدمة، تجنــون لــوقتكم الحصــاد. إن استماعكم المستمر جعل منكم معلمين ولكن بما أن بعض الزوار جــاءوا معكم، فلا ينفذ صبركم بل أطيلوا أناتكم على الضعفاء. ذلك أن الكنيســة هي جسد: لها عين، ولها رأس. وتمامًا كما أن الكعــب عنــدما تنخســه شوكة، تنحني العين إلى أسفل، لأنها هي أيضًا جزء مــن الجســد، ولا تقول: "لأننى وضعت أعلى، فأنا أحتقر الأعضاء السفلية"، بل هي تنحني إلى أسفل تاركة مكانها العالي. ما هو أحقر من الكعب، أو ما هو أسمى وأنبل من العين؟ إلا أن الشفقة والتعاطف يغطيان الفرق، والمحبة تساوي بين الجميع. يجب عليكم أن تتصرفوا هكــذا أيضًــا. إذا كنــتم نبهــاء ومستعدين حسنًا للاستماع، ولكن أخاكم لا يستطيع متابعــة مــا يُقــال، فلتنحن أعينكم نحو كعوبكم. دعوها تشعر بالتعاطف والشفقة على العضو الضعيف، حتى لا ينتظر كلماتي في عوز. فلا تستخدموا ذكاءكم لهلاكه إنما اشكروا الله على سرعة بديهتكم. هل أنتم قد اســتغنيتم؟ أنــا أفــرح

وأسرّ؛ ولكنه هو ما يزال فقيرًا. لا تدعوه يبقى في فقره بسبب غناكم. هو عنده شوكة، عنده تشويش في ذهنه؛ انزلوا إليه وانزعوا شوكته.

ما هو المكتوب إذاً؟ "كان إنسان غني" غني بالاسم، وليس بالفعل. "كان إنسان غني" يلبس الأرجوان، وينصب موائد تُكلّفه كثيرًا، ويدور بطاسات الخمر على الملتفين حوله، مقيمًا حفلات السكر كل يوم؛ وكان هناك شخص آخر، رجل فقير اسمه لعازر. وأين هو اسم الرجل الغني؟ لا يوجد؛ هو بلا اسم. كل هذا الثراء، واسمه غير موجود؟ أي نوع من الثراء هذا؟ شجرة تحمل أوراقًا ولكن بدون ثمر؛ بلوطة سامقة، تقدم البلوط طعامًا للوحوش؛ رجل بدون ثمار تليق بالرجال. حيث توجد الثروة والسلب، هناك ترى الذئب؛ حيث توجد الثروة والوحشية، هناك أرى أسدًا وليس رجلاً: فلقد خسر رفعته بسبب وضاعة شره. "كان إنسان غني" يلبس الأرجوان كل يوم، ويغطي روحه بخيوط العنكبوت، يتعطر بالروائح الحلوة، ولكنه نتن من الداخل، يقيم الموائد الدسمة ليطعم بها المتطفلين والمتملقين، يسمّن العبد، أي جسده، أما السيدة، أي نفسه، فيدعها تهلك جوعًا. بيته مزين بأكاليل الزهور، أما الأساس فمتسخ بالخطيئة. كانت روحه مدفونة في الخمر. هناك كان الرجل الغني، كما ترون، بموائده المكلفة، وطاسات الخمر المكللة بالزهور، وبمن يرافقه من المتطفلين والمتملقين، مسرح إبليس الشرير، الذئاب التي تفتك بالأغنياء، التي تشتري هلاك الأغنياء لتملأ بطونها، التي تبدد المال على الإطراء والنفاق الزائد عن الحد. الإنسان لا يخطئ إذا دعى هؤلاء الناس ذئابًا، هؤلاء الذين يلتفون حول الرجل الغني وكأنه خروف، يرفعونه ويجعلونه ينتفخ بالتمجيد، ولا يدعونه يرى جروحه، إنما يعمون بصيرته ويفاقمون مرضه. بعد ذلك، وعندما تتقلب عليه الظروف،

يهرب أصدقاؤه من حوله، أما نحن الذين انتقدناه نتعاطف معه، في حين أن وجوههم هم اختفت. هذا كثيرًا ما يحدث حتى في أيامنا هذه.

هناك كان الرجل الغني، كما ترون، يطعم المتطفلين والمداهنين، جاعلاً من بيته مسرحًا، مخدرًا الجميع بالخمر، صارفًا وقته في رخاء عظيم. وكان هناك رجل آخر، لعازر، يتأوه من القروح، ملقى على باب الرجل الغني، ويتمنى الفتات. كان عطشانًا والينبوع بقربه، كان جوعانًا والرخاء محيط به من كل ناحية. وأين كان ملقى؟ ليس في الشارع، ولا على قارعة الطريق، ولا في زقاق، ولا وسط السوق، إنما على باب الرجل الغني، حيث كان الغني يدخل ويخرج، فلا يسعه أن يقول: "لم أره، لقد اجتزت وعيني لم تره". كان ملقى على بابك، الجوهرة الثمينة وسط الطين، ولم تره؟ الطبيب ملقى على بابك، وأنت ترفض العلاج؟ القبطان على الميناء، وتتكسر سفينتك؟ هل تطعم المتطفلين ولا تطعم الفقير؟ هذا حدث في الماضي، ويحدث الآن أيضًا. لأجل ذلك كُتبت هذه القصة، حتى يتعلم الذين يجيئون مؤخرًا من تلك الحوادث ولا يصيبهم الهلاك الذي حل بهذا الرجل الغني. هوذا الفقير ملقى على الباب، هل ترون: الفقير من الخارج، ولكنه غني من الداخل. هو ملقى مصابًا في الجسد، مثل خزانة خارجها أشواك ولكن داخلها كنوز ثمينة. أي ضرر أصاب لعازر من ضعف الجسد، طالما كانت روحه سليمة؟ فليسمع الفقراء ولا يختنقوا بالإحباط. وليسمع الأغنياء فيتحولون عن شرورهم. لأجل ذلك وضعت الصورتان أمامنا، صورة الغِنَى وصورة الفقر، صورة الوحشية وصورة الاحتمال، صورة الجشع وصورة الصبر، حتى متى رأيت مسكينًا مصابًا ومرذولاً، لا تحسبه سيئ الحظ أو تعيسًا؛ وعندما ترى غنيًّا يزين نفسه، لا تحسبه محظوظًا أو سعيدًا. ارجع

بسرعة إلى المثل. إذا انكسرت بك سفينة الأفكار واختلط عليك الأمر، الجأ بسرعة إلى المرفأ، ونل راحتك من الشرح، وفكر كيف كان لعازر مهانًا ومحتقرًا، وكيف كان الغني يتمتع بالثروة والرفاهية، ولا تدع أي شيء مما يحدث في الحياة يربكك أو يحيّرك. إذا كان فهمك دقيقًا، فإن الأمواج لن تغمرك، وسفينتك لن تغرق، ذلك إذا استطعت أن تتعرف على طبيعة الأشياء بإفراز ذهنك.

لماذا تقول لي: "إن جسدي في شدة"؟ لا تدع الضرر يلحق بذهنك أيضًا. "فلان غني مع أنه شرير". وماذا يهم؟ غير أن الكارثة غير مرئية. لا تقيّم لي الإنسان من الخارج إنما من الداخل. إذا رأيت شجرة، هل تفحص أوراقها أم ثمارها؟ هكذا الأمر أيضًا مع الكائن البشرى؛ فمتى رأيت إنسانًا، لا تقيّم خارجه إنما داخله. افحص الثمرة وليس الأوراق. لعلها تكون بالفعل زيتونة برية (بلا ثمر)، وأنت تظنها زيتونة مثمرة وجيدة. لعله يكون في الحقيقة ذئبًا وأنت تظنه كائنًا بشريًا. هل ترى، لا يجب عليك أن تفحص طبيعته إنما صفاته ومميزاته، لا تفحص شكله ومظهره إنما تصرفاته وميوله؛ وليس ميوله فقط، إنما ادرس أسلوب حياته كلها. فإذا كان يحب الفقراء فهو كائن بشري، أما إذا كان منغمسًا في التجارة والربح بكامله، فهو شجرة بلوط. إذا كانت تصرفاته وحشية، فهو أسد، إذا كان لصًّا وجشعًا، فهو ذئب؛ وإذا كان مخادعًا ومضللاً، فهو أفعى. لعلك تقول: "أنا أبحث عن كائن بشري؛ فلماذا تريني وحشًا بدلاً من إنسان؟" اعرف ما هي فضيلة الكائن البشري الحقيقية، ولا يختلط عليك الأمر.

ها أنت ترى لعازر ملقى على الباب، مجروحًا، وينهشه الجوع. جاءت الكلاب ولحست جروحه: الكلاب أظهرت محبة نحو البشر أكثر

من الإنسان، وذلك عندما جاءت ولحست جروحه ونظفتها وطهرتها من الميكروبات. كان ملقى هناك، جالسًا مثل عملة ذهبية بجوار الطريق، بل وأكثر ثمنًا من ذلك. لم يقل لعازر ما يقوله أغلب الناس الفقراء: "هل هذه عناية الله؟ هل يدبر الله أمور البشر؟ هل أعيش أنا في البر وأنا فقير، في حين أنه يعيش في الشر وهو غني"؟ لم يفكر لعازر هكذا على الإطلاق، إنما خضع لمحبة الله للبشر التي لا تدرك. لقد نظف نفسه من الداخل وجعلها نقية، واحتمل وأظهر الصبر. كان جسده ملقى، أما ذهنه فكان يحلق عاليًا، وإرادته نبتت لها أجنحة. كان لعازر يتطلع إلى الجائزة، طارحًا عنه الأمور الشريرة، وصار شاهدًا للخيرات. لم يقل: "المتطفلون يأكلون ويفيض عنهم، وأنا لا أستحق حتى الفتات". ماذا قال في المقابل؟! أعطى الشكر لله وكان يمجده. جاء الوقت ليرحل الاثنان عن هذا العالم. مات الغني ودُفن. انتقل لعازر، إذ لا أود أن أقول إنه مات. كان موت الغني موتًا ودفنًا؛ أما موت الرجل المسكين كان رحلة، كان تغييرًا أو انتقالاً إلى الأفضل، كان ركضًا من نقطة الانطلاق نحو الجائزة، من البحر إلى الميناء، من المعركة إلى النصر، من عرق الجهاد إلى الإكليل.

رحل الرجلان إلى ذلك المكان حيث كل شيء حقيقي وصادق. رُفعت خشبة المسرح ونزعت الأقنعة. في مسارح هذا العالم تُقام خشبة المسرح في منتصف النهار ويدخل ممثلون كثيرون، يؤدون أدوارهم، لابسين أقنعة على وجوههم، ويحكون قصة قديمة ساردين أحداثها. فالواحد منهم يقوم بدور الفيلسوف، وهو ليس بفيلسوف. وآخر يصير ملكًا، برغم أنه ليس بملك، إنما يتخذ شكل الملك في القصة وآخر يصير طبيبًا دون أن يعرف كيف يمسك بقطعة صغيرة من أدواته، إنما

هو يلبس ملابس الطبيب. وآخر يصير عبدًا، برغم أنه حر؛ وآخر معلمًا برغم أنه يجهل حتى الحروف. فهم يظهرون بمظهر يختلف عن حقيقتهم. فالواحد يبدو مثل الطبيب، والآخر يتخذ شكل الفيلسوف ويلبس قناعًا بشعر مستعار، وآخر يبدو في شكل الجندى ويلبس ملابس الجنود وأسلحتهم. إن منظر القناع يخدعنا، إلا أنه لا يلغي طبيعة الإنسان أو يغيّرها، فهو فقط يجعله يظهر بمظهر مختلف، فطالما كان المشاهدون يجلسون على مقاعدهم، تظل الأقنعة تقوم بدورها؛ ولكن عندما يحل المساء، وتنتهي التمثيلية، ويخرج الجميع، تُطرح الأقنعة جانبًا. فالذي كان ملكًا على المسرح اتضح أنه عامل نحاس (نحّاس) خارج المسرح. الأقنعة نُزعت، وانتهى الخداع والتمثيل، والحقيقة انكشفت. فالذي كان حرًّا على المسرح نجد أنه عبد خارجه؛ إذ كما قلت، إن الخداع يكون داخل المسرح، ولكن الحقيقة خارجه. حل المساء، انتهى التمثيل، وظهرت الحقيقة. هكذا هو الأمر أيضًا في الحياة وعند نهايتها. العالم الحاضر هو مسرح، وأحوال الناس هي الأدوار التي يقومون بها: الغني والفقر، الحاكم والمحكوم، وهكذا. وعندما ينقضي هذا اليوم، ويحل ذلك الليل الرهيب، أو بالحري ذلك النهار، فهو ليل للخطاة، إنما نهار للأبرار وعندما تنتهي المسرحية، وتُنزع الأقنعة، وعندما يُدان كل إنسان بحسب أعماله ليس كل إنسان بحسب غناه وثروته، ليس كل إنسان بحسب وظيفته، ليس كل إنسان بحسب سلطته، ليس كل إنسان بحسب قوته، إنما كل إنسان بحسب أعماله، ما إذا كان حاكمًا أو ملكًا، امرأة أو رجلاً، عندما يطلب الله حساب حياتنا وأعمالنا الصالحة، وليس مقدار سمعتنا وشهرتنا، ولا عوز فقرنا، ولا غطرسة كبريائنا. أعطنى حساب أعمالك إذا كنت عبدًا ولكنك أنبل من الإنسان الحر، وإذا كنتِ امرأة ولكنك أشجع من الرجال. عندما تُنزع الأقنعة، يظهر الغني بحق

والفقير بحق. عندما تنتهي التمثيلية، يتطلع أحدنا من النافذة العليا ويـرى الإنسان الذي كان فيلسوفًا في داخل المسرح فيجده نحّاسا خارجه، ويقول "آه! ألم يكن هذا الإنسان فيلسوفًا في الداخل؟ في الخارج أراه نحّاسًا. ألم يكن هذا الآخر ملكًا في الداخل؟ في الخارج أراه إنسانًا وضيعًا. ألم يكن هذا الإنسان غنيًا على المسرح؟ خارج المسرح أراه فقيرًا". نفس الشيء يحدث عندما تنتهي هذه الحياة.

سوف لن أتحدث بتفاصيل كثيرة جدًّا، لئلا أربك المستمع بكثرة الكلام؛ إنما أريد أن أضع أمامكم قناعين لدورين من الأدوار التي تُمثل على المسرح. أنا أقدم لكم قناعين، مختصرًا الطريق عليكم بهذين القناعين، ومستهلاً معكم الحديث بهما. لقد وسّعت مداركم بشرح الحياة الحاضرة، حتى يعرف كل واحد منكم كيف يميز الحقيقة. كان هناك قناعان، كما ترون: فالواحد كان يلبس قناع الرجل الغني، والآخر يلبس قناع الفقير. لعازر كان يلبس قناع الفقير، أما الرجل الغني فكان يلبس قناع الرجل الغني، المظاهر أقنعة، وليست الواقع الحقيقي. كلاهما رحل إلى العالم الآخر، الغني والفقير. الملائكة استقبلت لعازر، الملائكة عوض الكلاب، وحضن إبراهيم عوض باب الرجل الغني، والرفاهية بعد الجوع الذي بلا نهاية، والراحة الدائمة بعد العذاب والضيقات. أما الغني فبعد الرخاء والثروة الطائلة استقبله الفقر، وحلّ العذاب والعقوبة عوض الموائد الدسمة الغالية، وجاء الألم والكرب بعد الراحة. انظروا ماذا يحدث؛ كلاهما رحل إلى العالم الآخر، وانتهت التمثيلية، لقد نُزعت الأقنعة، وظهرت الوجوه على حقيقتها منذ الآن وصاعدًا. كلاهما رحل إلى العالم الآخر. الغني وسط عذابه يرى لعازر يتمتع بالرخاء والرفاهية في حضن إبراهيم، ويقول له: "يا أبي إبراهيم أرسل لعازر ليبل طرف

أصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب". وبمـــاذا يجيبـــه إبراهيم: "يا ابني أنت استوفيت خيراتك في حياتـــك، ولعـــازر اســـتوفى بلاياه. والآن هو يتعزى هنا وأنت تتعذب. فوق هذا كله بيننا وبينكم هوّة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون" (لو١٦: ٢٤-٢٦). انتبهوا: مناقشة هذه الكلمات هي مفيدة ونافعة، هـــي مخيفة بالفعل، ولكنها مطهرة، هي تجلب الحزن والأسى، ولكنها تقوّمنا. اسمعوا لما أقول. نظر الغني من وســـط عذاباتـــه ورأى لعـــازر: رأى وضعًا جديدًا مختلفًا. "كان لعازر منطرحا على بابك كـــل يـــوم؛ وأنـــت تدخل وتخرج للمرة الثانية أو الثالثة ولا تراه. الآن، وأنت تتلظـــى فـــي النيران، هل نظرته من بعيد؟ عندما كنت تحيا في ثرائك، وعندما كنـــت حرًّا لترى ما تريده بإرادتك، أغفلت رؤيته. فلماذا صـــارت لـــك حـــدة البصر الآن؟ ألم يكن منطرحًا على بابك؟ كيـــف اســـتطعت أن تتفـــادى رؤيته؟ عندما كان بقربك لم تره؛ والآن هل تراه عن بُعد، حتى عبر هوّة عظيمة مثل هذه؟".

وماذا فعل الرجل الغني؟ دعا إبراهيم أباه. "لماذا تدعوه أبًا وأنت لـــم تتشبه بكرمه وحسن ضيافته؟ "دعا إبراهيم أباه، ودعاه إبراهيم ابنه. هنـــا تظهر مسميات العلاقة بينهما، ولكن بدون جدوى. المثل يستحضر أمامك هذه المسميات، ليعرّفك أن الأسرة والأهل لن ينفعوك شيئًا. إن العظمـــة الحقيقية لا تكمن في رفعة مقام أجدادك، إنما في فضيلة شخصـــيتك. لا تقل لي: "إن أبي قنصل". ما شأني أنا بذلك؟ وأنا لا أقول فقط "لا تـــردد أمامي ان أباك قنصل"، بل وإن كان أبوك هو بولس الرسول نفسه، وإن كان إخوتك شهداء، ولكنك لا تتشبه بفضيلتهم، فلن تنفعك هذه القرابة، بل بالحري هي تضرك وتدينك. ربما يقول أحدكم: "أمـــي تتصـــدق علـــى

الفقراء". ما علاقة ذلك بك وأنت تتصرف بوحشية وقسوة؟ إن محبتها هي للإنسانية تدينك أنت بالأكثر. ماذا قال يوحنا المعمدان للشعب اليهودى؟ "اصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا" (لو٣:٨). هل لكم سلف صالح وممجد؟ إذا تمثلتم به انتفعتم؛ ولكن إذا لم تتمثلوا به، يصير سلفكم النبيل متهمًا لكم، لأنكم صرتم ثمرة فجة من أصل صالح ونبيل. ولا تدعوا أحدًا قط محظوظًا لأن أقرباءه أتقياء وصالحون، إذا هو لم يتشبه ببرهم واستقامتهم. هل أمك امرأة شريرة؟ هذا لا شأن له بك على الإطلاق. تمامًا كما أن فضيلة الأم الصالحة لا تفيدك شيئًا إذا أنت لم تتشبه بها، هكذا أيضًا شرور أمك لا تلحق بك ضررًا إذا أنت سلكت طريقًا مختلفًا في حياتك. وتمامًا كما أنك في الآخرة تستحق لومًا أكبر، لأن المثال الصالح كان في أسرتك وأنت لم تتمثل به، هكذا أيضًا يستحق الإنسان تمجيدًا أعظم إذا كانت أمه شريرة ومع ذلك لم يتشبه بشرها، إنما صار ثمرة صالحة من أصل فج. المطلوب منك هو فضيلتك الشخصية وليست رفعة وعظمة أسلافك.

أنا من جانبى، ربما أدعو العبد نبيلاً، والمكبل بالأغلال سيدًا، ذلك متى عرفت صفات وطباع كل منهما. أنا أعتبر الشخص الذي من طبقة عالية أنه ينتمي إلى أحط الطبقات إذا كانت نفسه وضيعة وحقيرة مثل نفوس العبيد. ذلك أن من هو العبد بالفعل، إلا الذي يرتكب الخطيئة؟ إن العبودية الأخرى تعتمد على ظروفنا الخارجية، أما هذه العبودية فهي صفة تميز ميولنا الداخلية. في الحقيقة لم تأت العبودية أصلاً من هذا المصدر. لم يكن هناك عبيد من قبل. عندما جبل الله الإنسان، لم يجعله عبدًا، إنما حرًّا. هو جبل آدم وحواء، وكانا حرين. فكيف بدأت العبودية

إذا؟ لقد انحرف جنس البشر عن الطريق وتعدّوا حدود الرغبة المسموح بها، وجرفهم الفسق والتحرر الزائد. اسمعوا كيف حدث ذلك.

كان هناك فيضان، أغرق العالم المأهول برمته. انفتحت بوابات الفيضان، واندفعت ينابيع الغمر العظيم، فغطت المياه كل شيء (تك٧: ١١). انحلت الأشياء المنظورة وذابت ورجعت لعناصرها الأولى؛ لم تعد الأرض ظاهرة، إنما الكل كان بحرًا، وذلك بسبب غضب الله. كان كل شيء أمواجًا وبحرًا. الجبال عالية، إلا أن البحر غطاها. لم يعد هناك شيء سوى البحر والسماء، وهلك جنس البشر. كان نوح هو الشرارة التي بقت من جنسنا، شرارة تطفو وسط البحر العظيم دون أن تنطفئ، شرارة تحمل أبكار جنسنا، زوجته وأولاده، وحمامة وغرابًا، وكل شيء آخر. كانوا كلهم في الداخل، وحُمل الفلك على سطح المياه وسط الفيضان. لم يغرق الفلك، لأن ربانه كان هو سيد الخليقة كلها. لم تكن ألواح الفلك هي التي حملتهم، إنما يد الله القوية. ثم انظروا المعجزة: عندما اغتسلت الأرض بالفيضان وتطهرت، وعندما هلك الأشرار، عندما توقفت العاصفة، ظهرت رؤوس الجبال، واستقر الفلك على الأرض، فأرسل نوح الحمامة.

هذه القصص هي أسرار وألغاز، وكانت الحوادث إشارات لما سوف يحدث: أي، أن الفلك كان يمثل الكنيسة، ونوح يمثل المسيح، والحمامة تشير إلى الروح القدس، وغصن الزيتون يمثل محبة الله لجنس البشر (قارن ١بط ٣: ٢٠). أرسل نوح تلك الحمامة اللطيفة، فخرجت من الفلك - إلا أن تلك كانت إشارات، وهذه هي الحقائق. تمامًا كما أن الفلك الذي كان وسط الطوفان أنقذ الذين كانوا داخله، هكذا تنقذ الكنيسة كل من ضلوا وشردوا. غير أن ذلك الفلك أنقذهم فقط، أما الكنيسة فلها عمل

آخر بالإضافة إلى ذلك. أعني ما يلي: لقد استقبل الفلك الحيوانات غير العاقلة وأنقذها كحيونات غير عاقلة، أما الكنيسة فهي تستقبل الكائنات البشرية غير العاقلة (أي الذين يتصرفون بدون عقل)، ولكنها لا تنقذهم فقط إنما تغيّرهم أيضًا. الفلك استقبل غرابًا وأرسل غرابًا. أما الكنيسة فهي تستقبل الغراب لترسله حمامة؛ هي تستقبل الذئب لترسله حملاً. عندما يدخل إنسان سلاب وجشع ويسمع تعاليم الكتاب المقدس، تتغير طباعه ويصير حملاً عوضًا عن ذئب. الذئب يسرق ما يخص الآخرين، أما الحمل فيبذل حتى صوفه.

استقر الفلك وفُتحت الأبواب. خرج نوح سليمًا. رأى الأرض مقفرة. رأى قبرًا من الطين، مقبرة للبشر والحيوانات، الكل مدفون في أكوام، كل أجسام الخيول والبشر وكافة الوحوش غير العاقلة. رأى نوح تلك المأساة؛ رأى الأرض تتأوه بمرارة. تثبطت همته للغاية. لقد هلك الجميع . لم ينج أي كائن بشرى، ولا أي حيوان، ولا أي شيء آخر خارج الفلك. لم ير نوح إلا السموات. هزمه الإحباط الشديد؛ وسيطر عليه الفزع والكرب. شرب نوح خمرًا وأسلم نفسه للنوم ليشفي جراحات إحباطه. استلقى على فراشه، مسلمًا نفسه للنوم كما إلى طبيب، محاولاً نسيان ما قد حدث، تمامًا كما يفعل الرجل العجوز حينما يشرب خمرًا ويخلد إلى النوم. ينبغي أن ندافع عن نوح البار، لأنه لم يرغب السكر كشهوة إنما استخدم ذلك لعلاج جروحه الداخلية(*).سليمان أيضًا يقول: "أعطوا مسكرًا للحزين، وخمرا قويًّا لمرّي النفس" (أم ٣١: ٦). لأجل ذلك نجد أناسًا كثيرين، وبالأخص في الجنازات، عندما يفقد أحدهم طفله أو زوجته، وعندما تهزمه مشاعر الحزن، ويستحوذ عليه الإحباط،

(*) لعدم وجود أدوية في ذلك الزمان.

وعندما يسيطرعليه الوعي وتتحكم فيه المشاعر، يأخذه أصدقاؤه إلى منازلهم ويسكرونه بشدة. هم يعطونه خمرًا معتقًا قويًا (غير مخفف بالماء) وذلك لكي يبددوا حزنه وألمه الشديدين.

حدث نفس الأمر حينذاك لنوح. فإذ هزمه الإحباط، استعمل الخمر كدواء، ومن خلال الخمر استسلم للنوم. ولكن لكي تعرفوا كيف بدأت العبودية، دخل عليه بعد وقت قليل ذلك الابن الملعون ابنه بالطبيعة ولكن ليس في الطباع والصفات (أكرر: إن النبل والفخر لا يكمنان في عظمة الأسلاف إنما في فضيلة الشخص وطباعه)؛ دخل عليه الابن فرأى عري أبيه (تك ٩:٢٢). كان الواجب أن يكسوه، كان الواجب أن يغطيه لكبر سنه وشيخوخته، ولأجل حزنه وتفجعه، ولأجل المصائب التى حلت به، ولأجل أنه كان أباه؛ إلا أنه خرج وأعلن ما رأى. أخذ أخواه الآخران رداءً ومشيا إلى الوراء لئلا يريا عورة أبيهما، ودخلا وغطياه. فلما استيقظ نوح، وعرف كل ما حدث، قال: "ملعون كنعان: عبد العبيد يكون لإخوته" (تك ٩:٢٥). أي أنه كان يعني: "إنك سوف تصير عبدًا، لأنك أذعت خزي أبيك". هل رأيتم كيف جاءت العبودية من الخطيئة، وكيف أدخل الشر العبودية؟

هل تريدون أن أريكم حرية نشأت من العبودية؟ كان يوجد عبد اسمه أنسيمس، هارب لا جدوى منه. هذا هرب وذهب إلى بولس. اعتمد أنسيمس، وغسل خطاياه، وبقي تحت أقدام بولس. يكتب بولس إلى سيد ذلك العبد قائلا: "أنسيمس... الذي كان قبلاً غير نافع لك ولكنه الآن نافع لك ولي... فاقبله نظيري" ما الذي حدث؟ "لقد ولدته في قيودي" (فل ١٠-١٧).

هل رأيتم نبله؟ أرأيتم صفة تجلب الحرية؟ العبد والحر اسمان مجردان. من هو العبد؟ إنه مجرد اسم. كم من الأسياد يستلقون سكارى على فراشهم، في حين يقف العبيد بكل رزانة واتزان ؟ فمن منهما تدعوه عبدًا ؟ الرجل الرزين، أم ذاك الذي استعبدته الشهوة؟ الأول عبد من الخارج؛ أما الأخير فعبوديته تكمن داخله. أنا أقول ذلك، ولا أكف عن تكراره، لكيما يتكوّن عندكم رأي يفهم طبيعة الأشياء على حقيقتها، ولا ينخدع بما ينخدع به أغلب الناس، إنما يعرف من هو العبد، ومن هو الفقير، ومن هو الحقير والخسيس، ومن هو المحظوظ والسعيد، وما هي الشهوة. إذا تعلمتم التمييز بين هذه الأمور، لن يستحوذ عليكم أي اختلاط أو تشويش.

لكن لئلا نستطرد زيادة عن اللازم، ونخرج خارج موضوع عظتنا دعونا نعود مرة أخرى إلى الموضوع. ها هو الرجل الغني، كما ترون، وإذ به قد صار فقيرًا منذ الآن وصاعدًا؛ بل بالحرى، هذا الرجل كان فقيرًا أثناء غناه. ما المنفعة من أن يستولي الإنسان على ما يملكه الآخرون ولكنه يفقد ما هو خاص به؟ ما المنفعة من أن يقتني الإنسان المال ولكنه لا يقتني الفضيلة؟ لماذا تستولي على ممتلكات الآخرين وتفقد ما هو لك؟ ربما يقول أحدكم: "أنا عندي أرض مثمرة". وما أهمية ذلك؟ فأنت لا تملك نفسًا مثمرة. "أنا عندي عبيد"، ولكنك مفتقر للفضيلة. "أنا عندي ملابس"، ولكنك لم تقتن التقوى والورع. أنت عندك ما يخص الآخرين، ولكنك معدم مما يختص بك. إذا أعطاك إنسان مبلغًا من المال واستودعه عندك كأمانة، فأنا لا أستطيع أن أدعوك غنيًّا، أليس كذلك؟ لا، ولماذا لا ؟ لأن المال الذي عندك يخص شخصًا آخر، لأن هذا المال

وديعة عندك ؛ كنت أود أن يكون وديعة فقط ، ولا يُضاف إلى عــذابك والعقوبة التي تنتظرك.

لذلك عندما رأى الرجل الغني لعازر المسـكين، نــادى: "يــا أبــي إبراهيم، ارحمني" (لو ١٦: ٢٤). هذه الكلمــات هــى كلمــات الشــحاذ، المتسول، الفقير العالة. "يا أبي إبراهيم، ارحمني". ماذا تريــد؟ "أرســل لعازر". الرجل الذي عبرت بجواره آلاف المرات، الذي لم تكن ترغــب رؤيته – أتطلب الآن أن يُرسل إليك لأجل خلاصك؟ "أرســل لعــازر". وأين الذين كانوا يحملون لك الكأس؟ أين هــي ســجاجيدك؟ أيــن هــم المتطفلون الذين كانوا يتملقونك؟ أين هو زهوك وغرورك؟ أين كبرياؤك وتعاليك؟ أين هو ذهبك المدفون؟ أين هى ملابسك التى أكلها العث؟ أيــن هى الفضة التى كانت لها قيمة عالية جدا عنــدك؟ أيــن هــو تفــاخرك ورفاهيتك وغناك؟ كانت كلها أوراقا – حل عليها الشتاء فذبلت جميعها. كانت حلما – فلما جاء الصباح، انقضى الحلم. كانت ظــلالا – جــاءت الحقيقة، فهربت الظلال.

"أرسل لعازر". لماذا لم ير الغنى بارًّا آخر سوى إبراهيم؟ لماذا لــم ير نوحًا، أو يعقوب أو لوطًا، أو إسحق، إنما إبراهيم؟ لماذا؟ لأن إبراهيم كان مضيافًا وكان يدعو المسافرين إلى خيمته. لقد صار كــرم إبــراهيم وحسن ضيافته، كما ترون، اتهامًا أكثر خطــورة ضــد قســوة الغنــي ووحشيته. "أرسل لعازر". عندما نسمع ذلك، دعونا نرتعب يا أحبــائي، لئلا نرى نحن أيضًا الفقراء ونغفلهم، لئلا نجد عوض لعــازر كثيــرين هناك يتهموننا في الآخرة. "أرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبــرّد لساني لأني معذب في هذا اللهب" (لو ١٦: ٢٤). "لأنكم بالكيل الــذي بــه تكيلون يُكال لكم" (مت ٧: ٢). هل امتنعت عن أن تعطــي جــزءًا مــن

فتاتك؟ فأنت لن تجد بعضًا من قطرات الماء. "أرسل لعازر ليبرّد لساني بطرف أصبعه، لأني معذب في هذا اللهيب". وماذا قال له إبراهيم؟ "يا ابني أنت استوفيت خيراتك في حياتك، وكذلك لعازر استوفى بلاياه، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب" (لو١٦:٢٥). هنا لم يقل إبراهيم ببساطة في إجابته: "أنت نلت" [you have received] (ελαβεχ)، إنما:"أنت استوفيت" [you have received as your due] (απελαβεχ). إن زيادة هذه البادئة (απ) فى أول الكلمة تجعل المعنى مختلفا تماما. كما قلت لكم كثيرًا يا أحبائي، يجب أن نكون مفسرين حتى مقاطع الكلمات. مكتوب: "فتشوا الكتب" (يو٥:٣٩)؛ لأنه كثيرًا ما يحدث أن تثير "يوتا" واحدة أو نقطة واحدة فكرة جديدة (قارن مت ٥:١٨). ولكي تعرفوا أن إضافة حرف واحد ربما يكون لها معنى، تذكروا أن أبا الآباء هذا نفسه إبراهيم[١] (باليونانية Αβρααμ) كان يُسمى قبلا أبرام (Αβραμ): "فلا يُدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم" (تك ١٧:٥). أضاف حرف "A"، وجعله أبا لجمهور من الأمم. هكذا ترون أن إضافة حرف واحد أظهرت عظمة ونبل ذلك الرجل. لذلك لا تعبروا هكذا ببساطة على أمور كهذه. إذ لم يقل إبراهيم: "لقد نلت خيراتك"، إنما: "لقد استوفيت خيراتك". الذي يستوفي ما له، ينال ما يناله كحق له أو كدين له. انتبهوا لما أقول: "أن ينال"، هذا أمر، و"أن يستوفي" فهذا أمر آخر. الإنسان يستوفي ما كان يمتلكه من قبل، إنما ينال ما لم يكن قد ناله من قبل.

"أنت استوفيت خيراتك، ولعازر استوفى بلاياه". انظروا كيف استوفى الرجل خيراته، ولعازر استوفى بلاياه. لقد قلت هذا كله لأجل

---

[١] بالعبرية إبراهام وتعني أبا جمهور.

الذين يُعاقبون هنا ولا يُعاقبون في الآخرة، ولأجل الذين يعيشون في رخاء ويسر هنا ولكنهم يُعاقبون في الآخرة. لذلك انتبهوا لما أقول: "أنت استوفيت خيراتك، ولعازر بلاياه" – ما يستوفيه الإنسان هي الديون التي من حقه. انتبهوا لما أقول، – أنا أقترب من تلك النقطة – دعوني أنسج لكم النسيج[1]. لا ترتبكوا بالمقدمة. عندما أقول شيئًا كهذا انتظروا للخاتمة. أنا أود أن أجعل بصيرتكم حادة، ولا أريد أن أدربكم بطريقة سطحية، إنما أود أن أدخل بكم إلى أعماق الأسفار الإلهية، إلى ذلك العمق حيث لا توجد زوابع، إلى عمق أكثر أمانًا من البحر الهادئ. كلما تعمقتم أكثر كلما صرتم في أمان أكثر. إذ لا يوجد هنا اندفاع للمياه بدون ضوابط أو ترتيب، إنما الأفكار هنا مرتبة بطريقة حسنة ودقيقة. "لقد استوفيت خيراتك في حياتك، وكذلك لعازر بلاياه. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب". هنا يواجهنا سؤال هام. لقد قلت لكم إن من يستوفي، يستوفي دينًا هو من حقه. فإذا كان لعازر بارًا (وهو بالفعل كذلك)، وظهر في حضن إبراهيم بإكليله، وجائزته، وراحته، وتمتعه، ومكافأة احتماله وصبره، أما الآخر فكان خاطئًا، وشريرًا وقاسيًا للغاية، يقضي حياته في الرفاهية والسكر، مقيما المأدبات الفاخرة، منغمسا في الفسق والفجور، فلماذا قال له إبراهيم، "لقد استوفيت (حقك)" ؟ فهل كان لهذا الثري، الخليع والقاسي، ثمة دين يستحقه؟ وما هو هذا الذي يستحقه؟ لماذا لم يقل إبراهيم "لقد نلت"، إنما "لقد استوفيت"؟

انتبهوا لما أقول. كان الغني يستحق العذاب، ويستحق العقوبة، ويستحق الألم والكرب. فلماذا لم يقل إبراهيم: "أنت نلت"، إنما، "أنت استوفيت حقوقك"، قاصدا تلك الحياة التي كان يحياها، "ولعازر استوفى

---

[1] اي ، دعوني أربط لكم الكلام بعضه ببعض.

البلايا التي يستحقها"؟ ركزوا أذهانكم – ها أنا أغوص إلى عمــق هــذه الأفكار. بين كافة جنس البشر، هناك البعض خطاة، والبــاقون أتقيــاء. انتبهوا أيضًا للفرق بين الأبرار. فالواحد بار وتقي، أما الآخر فأكثر منه برًّا وتقوى. الواحد رفيع المقام، أما الآخر فأكثر منه رفعة. تمامًا كما أنه توجد نجوم كثيرة وشمس وقمر، هكذا هناك اختلافات بين الأتقياء. "مجد الشمس شيء ومجد القمر آخر ومجد النجوم آخر" (١كو١٥:٤١). ذلــك أن الواحد يكون في مجده أعظم من الآخر. وكما أن ذلك ينطبــق علــى الأجسام السمائية، فهو ينطبق كذلك على الأجسام الأرضية. وكما أن بين الأجسام هناك جسمًا للغزال، وآخر للكلب، وآخــر للأســد أو لحيــوان مشابه، وهناك جسم للثعبان وما شابهه، هكذا توجد أيضًا اختلافات بــين أنواع الخطايا المختلفة. فبين البشر، البعض أبــرار وأتقيــاء، والبــاقي خطاة؛ ولكن بين الأبرار أنفسهم هناك اختلافات عظيمة، وبين الأشــرار أيضًا توجد اختلافات كبيرة. انتبهوا: إذا كان هناك بار، حتى ولو كــان بارًّا عشرة آلاف مرة، ولو وصل إلى أعلى القمة، لدرجة أنه تحرر من الخطيئة، إلا أنه ما يزال غير طاهر تمامًا من كافة الشوائب؛ حتــى لــو كان بارًّا عشرة آلاف مرة، فهو ما يزال كائنًا بشريًا.

"من يقول إني زكّيت قلبي تطهرت من خطيتي؟" (أم ٢٠:٩). لأجــل ذلك أمرنا الرب أن نقول في الصلاة: "اغفر لنا ما علينا" (مــت ٦:١٢) حتى إذا ما تعودنا الصلاة نتذكر أننا معرضون للعقاب في الآخرة. حتى بولس الرسول، الإناء المختار، هيكل الله، لسان المسيح، قيثارة الــروح القدس، معلم المسكونة، بولس الذي اجتاز الأرض والبحر، الــذي خلــع أشواك الخطيئة، الذي بذر بذور التقوى والورع، بولس الذي كان أغنــى من الملوك، وأقوى من الأغنياء، وأشجع من الجنود، وأكثر حكمة مــن

الفلاسفة، وأكثر فصاحة من الخطباء، بولس الذي لم يقتن شيئًا ومع ذلك ربح كل شيء، الذي أقام الموتى بظله، الذي شفى الأمراض بهدب ثوبه، الذي انتصر على البحر، واختطف للسماء الثالثة، بولس الذي دخل الفردوس، الذي أعلن المسيح كرب، يقول "لست أشعر بشيء في ذاتي ولكنني لست بذلك مبررًا". بولس الذي اقتنى فضائل عظيمة جدًا وكثيرة جدًا كهذه يقول: "ولكن الذي يحكم فيّ هو الرب" (١كو٤:٤).

فمن يفتخر بأن قلبه طاهر؟ أو من يقول إنه بلا خطيئة؟ يستحيل إذن، كما ترون، أن يكون أي كائن بشري بدون خطيئة تمامًا. ماذا تقولون؟ فلان بار؟ هو يعطي صدقات؟ هو يحب الفقراء؟ إلا أنه يرتكب خطأ ما. ربما يكون طبعه عنيفًا، أو مغرورًا، أو أي شيء آخر من هذا القبيل، لا داع لذكر القائمة بكاملها. هناك شخص يعطي صدقات، ولكنه كثيرًا ما يفشل في السيطرة على نفسه؛ آخر يسيطر على ذاته، ولكنه لا يعطي صدقة. شخص اشتهر بهذه الفضيلة، آخر بفضيلة أخرى. لنفترض أن شخصًا ما كان بارًا وتقيًا: كثيرًا ما يحدث أن يكون الإنسان بارًّا، ويتحلى بكافة الصفات الحسنة، إلا أنه يصير متكبرًا ومتعجرفًا بسبب بره وتقواه؛ وهكذا تُفسِد عجرفته كل تقواه وورعه. ألم يكن الرجل الفريسي بارًّا، يصوم مرتين في الأسبوع؟ وماذا قال؟ "أنا لست مثل باقي الناس الخاطفين الظالمين الزناة" (لو١٨:١١). كثيرًا ما ينتفخ الإنسان بنقاوة ضميره؛ والضرر الذي لا يلحقه من الخطيئة يلحقه من الكبرياء. حقًا، يستحيل على أي إنسان أن يكون بارًّا لدرجة أنه يكون نقيًا تمامًا من كل خطيئة. وبالعكس، يستحيل على أي إنسان أن يكون شريرًا لدرجة أنه لا يملك ولا صفة حسنة واحدة. أنا أقصد ما يلي: فلان يرتكب السرقة والاحتيال والاغتصاب؛ إلا أنه أحيانا يعطي صدقة،

أحيانًا يضبط ذاته، أحيانًا يتفوه بكلمة رقيقة، أحيانًا ربما يساعد ولو إنسانًا واحدًا فقط، أحيانًا هو ينوح، أحيانًا يحزن ويتفجع. وبالتالي لا يوجد هناك بار بلا خطيئة، كما لا يوجد ثمة خاطئ بدون أي صلاح على الإطلاق. ما هو محزن أكثر من أخآب؟ لقد قتل وأخذ مقتنيات (١مل ٢١: ١٩)؛ ومع ذلك، عندما حزن، قال الرب لإيليا: "هل رأيت كيف اتضع أخآب أمامي؟" (١مل ٢١: ٢٩). هل رأيتم كيف أنه في عمق الشرور من الممكن أن يوجد ثمة عمل صالح ولو كان صغيرًا؟ ما هو أسوأ من يهوذا الخائن، الذي استعبدته محبة المال؟ إلا أنه مع ذلك عمل عملاً صالحًا بعد خيانته، حتى ولو كان ذلك العمل صغيرًا. إذ قال: "أخطأت إذ سلمت دمًا بريئًا" (مت ٢٧: ٤). هذا ما أقصده: إن الإنسان ليس شريرًا بطبيعته، لدرجة أن الفضيلة لا تستطيع أن تجد لها مكانًا فيه. إن الخراف لا تستطيع أبدًا أن تتحول إلى حيوانات متوحشة، لأنها لطيفة بطبيعتها. كذلك الذئب لا يمكن أبدًا أن يصير أليفًا، لأنه متوحش بطبيعته. إن قوانين الطبيعة الحيوانية لا تنحل ولا تهتز إنما تبقى ثابتة. أما في حالتي أنا فهذا لا ينطبق عليّ، إنما أنا أصير متوحشًا وقاسيًا عندما أريد ذلك، وأصير أليفًا ولطيفًا أيضًا بإرادتي؛ ذلك أني لست مقيدًا بالطبيعة، إنما أنا كُرّمت بحرية الاختيار.

فكما قلت لكم ، لا يوجد إنسان صالح لدرجة أن لا تكون له أدنى شائبة، كما لا يوجد من هو شرير لدرجة أنه لا يتحلى ولو بصفة حميدة واحدة ولو كانت صغيرة. وبما أنه يوجد عقاب لكل شيء، هكذا أيضًا توجد مكافأة لكل شيء. حتى لو كان الإنسان قاتلاً، ومهما كان شره أو جشعه، إذا هو عمل عملاً صالحًا، تُحفظ له المكافأة على هذا العمل الصالح؛ هذا العمل الصالح لا يمر هكذا بدون مكافأة بسبب الشر الذي

ارتكبه. وبالعكس، إذا أنجز إنسان أعمالاً صالحة لا حصر لها، إنما ارتكب أيضًا عملاً حقيرًا، فإن العقوبة تظل باقية على الشر الذي ارتكبه. تذكروا هذا؛ احفظوه بثبات ورسوخ. لا يوجد ثمة إنسان صالح بدون أية خطيئة، كما لا يوجد ثمة شرير بدون أي صلاح البتة. أنا أكرر نفس الكلام مرات، لكي أثبت الفكرة، لكي أزرعها في أعماق قلوبكم. إبليس يضع بعض العقبات في نفوسكم، لكي يضللكم ولكي يفسد ما أقوله. لأجل ذلك أنا أزرع كلماتي في أعماقكم. فإذا حفظتموها بأمان، لن تفقدوها حتى بعد خروجكم من الكنيسة. تمامًا كما أنني أضع الذهب في المحفظة، وأربطها بإحكام وأختم عليها، لكي أحفظها من أن يسرقها لص في غيابي، هكذا أيضًا أفعل معكم يا أحبائي. فبتعليمي المتواصل أنا أربط وأغلق وأختم، لكيما أجعل ميولكم وأفكاركم في أمان، لئلا تسرقها البطالة، بل بحفظها بصورة أفضل، ربما أبعد عنكم التشويش والارتباك من خلال الهدوء الموجود داخلكم. هكذا، ترون، أن كلامي ليس على سبيل الثرثرة، إنما ينطلق من اهتمام المعلم، ومن عاطفته ومحبته، لئلا تضيع الكلمات هباء. فإن ذكر هذه الأمور لا يزعجني، وهو يحصّنكم بصورة أفضل. أنا أريد أن أعلم، وليس فقط أن أتظاهر بالفصاحة.

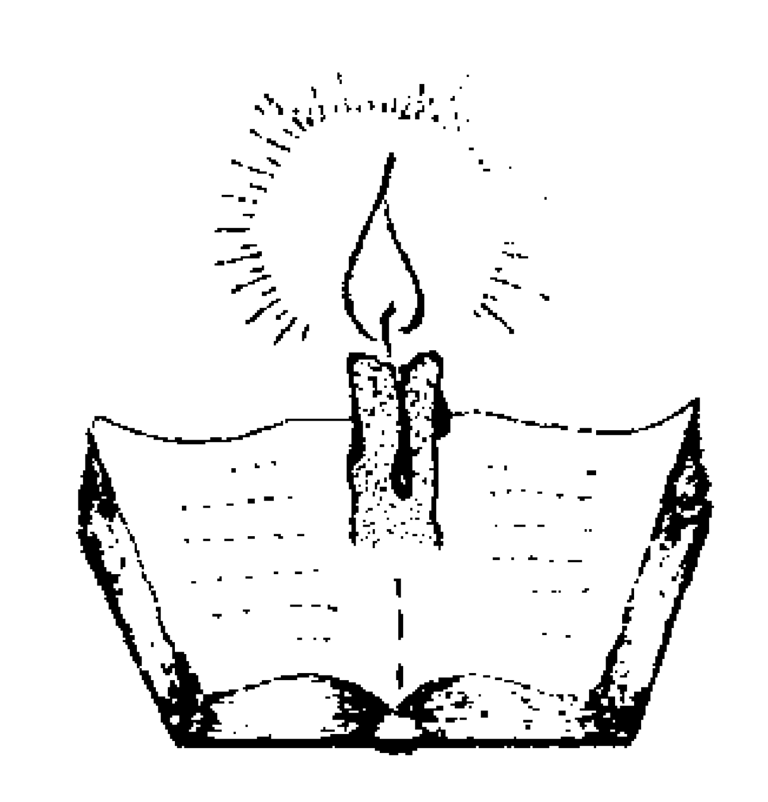
وبذا لا يوجد بار بلا خطية، كما لا يوجد خاطئ بدون صلاح. ولكن بما أن هناك مجازاة لكليهما، انظروا ماذا يحدث. الخاطئ يستوفي كحق له المكافأة العادلة على أعماله الصالحة، حتى ولو كان ذلك العمل الصالح صغيرًا؛ وكذلك البار يستوفي كحق عليه الدينونة العادلة على خطيئته، حتى ولو ارتكب شرًا صغيرًا. إذا ماذا يحدث، وماذا يفعل الله؟ لقد وضع الله حدودًا للخطيئة بين الحياة الحاضرة والدهر الآتي. فإذا كان الإنسان بارًا، إنما ارتكب عملاً حقيرًا طائشًا، ومرض في هذه الحياة

وسُلم للعذاب، لا تنزعجوا، إنما فكروا في أنفسكم قائلين إن هذا الرجل الصالح ارتكب في وقت ما عملاً صغيرًا شريرًا، وها هو يستوفي ما يستحقه هنا، لكيما لا يُعاقب في الآخرة. وبالعكس، إذا رأيتم خاطئًا يسرق ويحتال ويرتكب عددًا لا يحصى من الشرور، ثم رأيتموه مترفهًا ويعيش في بحبوحة، فكروا أنه عمل عملاً صالحا صغيرًا في وقت ما، وها هو يستوفي خيراته التي يستحقها هنا، لكيما لا تكون له مكافأة في الآخرة. لأجل ذلك إذا كان الشخص تقيًا وبارًا وواجهته بعض المصائب، فهو يستوفي بلاياه هنا لهذا الغرض، حتى يخلع عنه خطيئته هنا ويرحل نظيفًا إلى العالم الآخر. وإذا كان الشخص خاطئًا، مثقلاً بالشرور، وقد ارتكب من الشرور المستعصية ما لا حصر له، من سلب وجشع وخلافه، فهو يتمتع بالرخاء هنا لأجل هذا الغرض، لكيما لا يطلب مكافأة في الآخرة. فبما أن لعازر إذًا كانت له بعض الخطايا، والرجل الغني كانت له بعض الأعمال الصالحة، لأجل ذلك يقول إبراهيم للرجل الغني: "لا تطلب أي شيء هنا: أنت استوفيت خيراتك في تلك الحياة، ولعازر استوفى بلاياه". ولكي أثبت لكم أنني لا أقول هذا الكلام هكذا ببساطة، إنما الأمر هو هكذا بالفعل، يقول إبراهيم: "لقد استوفيت خيراتك". ماذا؟ هل فعلت عملاً صالحًا؟ لقد استوفيت ما تستحقه من الثروة، والصحة، والرخاء، والقوة، والسلطة. فلم يعد لك ما تستحقه هنا. لقد استوفيت خيراتك. ماذا إذن؟ ألم يخطئ لعازر على الإطلاق؟ نعم، لقد استوفي لعازر كذلك البلايا التي يستحقها. عندما كنت أنت تستوفي خيراتك، كان لعازر في الوقت نفسه يستوفي بلاياه. لأجل ذلك هو الآن يتعزى ولكن أنت تتعذب.

فإذا رأيتم رجلا تقيا يُعاقب فى هذه الحياة، احسبوه محظوظا، وقولوا: "هذا البار إما أنه ارتكب بعض الشرور، وها هو يستوفي ما

يستحقه عليها لكيما يرحل نظيفا إلى الحياة الأخرى؛ أو أنه يعاقب بأكثر مما تستحقه خطيئته، وفائض البر محسوب لصالحه". ذلك أن الحساب سوف يتم في الآخرة، حيث يقول الله للرجل البار: "أنت لك عليّ هذا المقدار". ربما يكون الله قد استودعه عشرة أوبولات[1] (ten obols) وأعطاه اعتمادًا بالعشرة أوبولات. فإذا انفق الإنسان ستين أوبولاً في اعمال الخير، يقول له الله، "سوف أحسب لك خمسين أوبولا على برك"، ولكي تعرفوا أن الباقي يُحسب في حساب البر لذلك الإنسان، تذكروا أن أيوب كان رجلاً بارًا، بلا عيب، صادقًا، تقيًا، لا يرتكب شرًّا. ولقد عُوقب جسده هنا حتى تُحسب له المكافأة في الآخرة. ماذا قال الله لأيوب؟ "هل تظن أنني تصرفت معك هكذا إلا لكي يظهر برك؟" (أي ٤٠:٨ – حسب نص العظة).

لأجل ذلك إذن، عندما نظهر نفس الصبر مثل الأبرار، وعندما نظهر احتمالاً يتساوى مع تصرفهم الحسن، عندئذ سوف نستوفي الخيرات المعدة للقديسين الذين يحبون الله؛ التي يا ليتنا ننالها جميعًا، بالنعمة والمحبة التي لربنا يسوع المسيح، الذي له المجد والقوة إلى دهر الدهور. آمين.



[1] الأوبول: قطعة نقد إغريقية تساوى ١/٦ دراخما [من قاموس المورد].

العظة السابعة للقديس يوحنا ذهبي الفم على مثل " لعازر والرجل الغني"

أود أن أعود مرة أخرى لتعليمي المعتاد وأضع أمامكم مائدة روحية؛ إلا أنني أتردد وأتراجع، إذ أرى أنكم لم تجنوا أثمارًا من تعليمي المتواصل. عندما يزرع الزارع الحبوب بوفرة في بطن الأرض، ويرى أن الإنتاج لا يتناسب مع تعبه، لا يقوم بنفس العمل بالحماس ذاته؛ ذلك أن رجاء المحصول دائمًا يخفف من ثقل التعب المبذول. بنفس الطريقة كنا سوف نتحمل بسهولة تعب هذا التعليم، إذا وجدنا أن شيئًا أعظم ينتج من نصائحنا لمنفعتكم. ولكن في واقع الأمر، عندما نجد بعد كل هذه النصائح والمشورات والتوبيخ من جهتنا [إذ لم نكف عن تذكيركم بالمحكمة الرهيبة، وبالدينونة التي لا تعرف الرحمة، وبالنار التي لا تنطفئ والدود الذي لا يموت (مر ٩:٤٨)] إن بعض الذين استمعوا إلينا [لأنني لا احكم على الجميع، حاشا]، نسوا كل شيء وسلموا أنفسهم مرة أخرى للمشاهد الشيطانية التي تجري في السباق[1]، فبأي ترقب أو حماس نبذل نفس الأتعاب بعد ذلك ونضع هذه التعاليم الروحية أمامكم؟ نحن نرى أن هؤلاء لم يجنوا ثمرًا إضافيًّا مما قلنا، إنما هم فقط بحكم العادة يستحسنون ما نقوله، ويُظهرون لنا أنهم تقبلوا كلماتنا بفرح، ثم بعد ذلك سرعان ما يركضون إلى حلبات السباق. فهم يصفقون بالأكثر للمتسابقين ويظهرون جنونًا بدون انضباط. وهم يندفعون سويًّا بحماس شديد وكثيرًا ما يتشاحنون بعضهم مع بعض، قائلين إن هذا الحصان كان

---

[1] راجع ما يتم في هذه المسابقات في الفقرة الأخيرة من المقدمة.

يركض بصورة سيئة، وذاك الحصان تعثر وسقط. وأحدهم يقف في صف ذلك المتسابق[1]، وآخر في صف متسابق آخر. أما كلماتنا فلا تخطر على بالهم، ولا الأسرار الروحية الرهيبة التي نحتفل بها هنا؛ ولكنهم كأسرى في فخاخ إبليس يقضون اليوم كله في السباق، مُسلمين ذواتهم للمشاهد الشيطانية، وجالبين على أنفسهم العار أمام اليهود، والوثنيين، والذين يريدون السخرية منا.

من يستطيع أن يحتمل ذلك بدون ألم، حتى لو كان متحجر القلب وبدون إحساس، فكم يكون الأمر مؤلمًا لنا بالأكثر نحن الذين نود بكل حماس أن نظهر محبتنا الأبوية نحوكم جميعًا؟ ليس فقط هذا الأمر هو الذي يحزننا، أي إنكم أظهرتم أن تعبنا ضاع هباء؛ بل ونحن نتأثر بالأكثر عندما نفكر أن الذين يفعلون هذه الأشياء يجلبون على أنفسهم دينونة أعظم وأكثر قسوة. نحن نترجى مكافأة أتعابنا من السيد الرب، إذ بذلنا كل ما نستطيع بذله من جانبنا؛ فنحن أودعنا فضتنا لدى الصيارفة، وتاجرنا بالوزنات التي استؤمنا عليها، ولم نقصّر في شيء من المهام الموكولة إلينا. أما بالنسبة للذين تلقوا هذه الفضة الروحية، فأي عذر لهم، أخبروني، أية حجة، عندما لا يُطالبون فقط برأس المال إنما بالربح أيضًا؟ بأي عين ينظرون إلى القاضي؟ كيف يتحملون ذلك اليوم الرهيب، وتلك العقوبات التي لا تُحتمل؟ فهم لا يستطيعون ادعاء الجهل، أليس كذلك؟ ها نحن كل يوم نصيح في آذانهم، ننصحهم، نحذرهم، نريهم هلاك ضلالتهم، وخطورة الضرر، وغدر التجمعات الشيطانية؛ ومع كل ذلك فشلنا في إقناعهم.

ولماذا أذكر ذلك اليوم الرهيب؟ فلنعظهم بما يحدث في هذه الحياة

---

[1] Charioteer: وهو سائق المركبة الخفيفة التي تجرها الخيول في السباق.

الحاضرة. أيستطيع هؤلاء الذين اشتركوا في المشاهد الشيطانية أن يحضروا هنا بثقة ودالة، في حين أن ضميرهم يوبخهم بصوت عال؟ أو، ألم يسمع هؤلاء الطوباوي بولس، معلم المسكونة، وهو يقول: "... أية شركة للنور مع الظلمة... وأي نصيب للمؤمن مع غير المؤمن؟" (٢كو٦: ١٤،١٥). أية دينونة لا يستحقها المؤمن الذي بعدما يتمتع بالصلوات والأسرار المرعبة التي نحتفل بها هنا وبالتعليم الروحي، يخرج بعد نهاية الخدمة ويجلس في المشاهد الشيطانية مع غير المؤمنين - الذي استنار بنور شمس البر يجلس بجوار التائه في ظلام الشر؟ أخبروني، كيف نستطيع بعد ذلك أن نلجم ألسنة الوثنيين أو اليهود؟ كيف نستطيع جذبهم، كيف نستطيع اقناعهم بالحضور ليسجلوا أسماءهم مع المؤمنين الأتقياء، في حين أنهم يرون الذين تسجلوا ضمننا يختلطون معهم في تلك المشاهد المميتة الممتلئة بكل أنواع الفساد؟ أخبروني، لماذا بعد الحضور هنا، وبعد تطهير وغسل الأفكار، وبعد توجيه أذهانكم للرزانة والندم، تذهبون مرة أخرى إلى هناك لتدنسوا أنفسكم؟ أم أنكم لم تسمعوا صوت الحكيم وهو يقول: "واحد يبني وواحد يهدم فماذا ينتفعان بذلك غير التعب" (سيراخ ٣١: ٢٣)[١]. هذا هو ما يحدث الآن. فعندما تعودون إلى السباقات وتهدمون توًّا كل ما بنيناه هنا بتعليمنا المتواصل ونصائحنا الروحية، وتسوّونه بالأرض (إذا جاز التعبير)[٢]، فأية منفعة نجنيها من عرض مواد البناء مرة أخرى والمحاولة من جديد منذ البداية، ومن مروركم مرة أخرى عبر وسائل التطهير[+]؟ ألا يعتبر ذلك قمة الجنون والحماقة؟

---

[١] في ترجمات أخرى (سيراخ ٣٤: ٢٣).

[٢] أي - يهدمونه من الأساس.

[+] أي الوعظ الذي يطهر القلب.

أخبروني، إذا أنتم رأيتم إنسانًا يفعل نفس الأمر في هذا البناء المادي المقام من الحجارة، ألا تنظرون إليه كإنسان مختل العقل يتعب بصورة عشوائية وبدون فائدة، وينفق كل شيء بدون طائل أو هدف؟ يجب أن تنظروا بنفس الشكل إلى هذا البناء الروحي، ويكون لكم نفس الرأي فيما يختص بهذه الحالة. انظروا؟ بما أننا تعيّنّا بنعمة الله لهذه المهمة، ففي كل يوم نرتفع بهذا البناء الروحي إلى أعلى، ونحاول أن نرشدكم بالتعليم إلى الفضيلة؛ إلا أن بعض الذين يسرعون إلى التجمع هنا، في لحظة واحدة من الزمان يهدمون تمامًا بأيديهم، من خلال انغماسهم في الملذات، هذا البناء الذي شيّدناه بتعب عظيم. وهم بهذه الوسيلة يصيبوننا بالإحباط ويثبطون همّتنا كثيرًا، أما بالنسبة إلى أنفسهم فهم يجلبون على ذواتهم عقوبة قاضية وعظيمة.

لعلي قد جعلت توبيخي صارمًا أكثر من اللازم: أكثر من اللازم، أي، بالنسبة لمحبتي تجاهكم، ولكنه لا يتناسب إطلاقًا مع عظمة خطيئتكم. برغم ذلك، وبما أنه من الضروري أن نمد أيدينا حتى لمن سقط، وأن نظهر عنايتنا الأبوية للذين صاروا مهملين إلى هذه الدرجة، فأنا لا أيأس من خلاصهم برغم كل ذلك، فقط إذا كانوا جادين في عدم الوقوع مرة أخرى في تلك العادات ذاتها، إنما يقررون التوقف عن الانغماس في الملذات عند هذه النقطة، ويحرّمون على أنفسهم زيارة حلبات السباق وكل المشاهد الشيطانية المشابهة. نحن لنا "سيد" محب، لطيف، يهتم بنا، وعندما يرى هذا السيد ضعف طبيعتنا، وعندما نسقط في خطيئة ما، ونتعثر بسبب بلادتنا، يطلب منا أمرًا واحدًا فقط، أن لا نيأس، إنما نترك الخطية ونسرع للاعتراف. إذا فعلنا ذلك فهو يعدنا بغفران سريع، لأنه هو نفسه الذي قال: "هل يسقطون ولا يقومون أو

يرتد أحد ولا يرجع؟" (إر٨:٤). فإذا عرفنا ذلك، دعونا لا نزدري بسيدنا الذي يحبنا هكذا كثيرًا، إنما دعونا ننتصر على عادتنا القبيحة والمضرة. دعونا لا ندخل من الباب الواسع ونسير في الطريق السهل، كما سمعتم رب الكل يحضنا اليوم في الإنجيل، عندما يقول: "ادخلوا من الباب الضيق، لأنه واسع [الباب ورحب] الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك. وكثيرون هم الذين يدخلون منه" (مت ٧:١٣).

عندما تسمعون "الباب الواسع" و "الطريق الرحب" (أو السهل — Easy) لا تنخدعوا بالبداية، إذ تلاحظون الكثيرين يدخلون منه، إنما اعرفوا أن هذا الطريق يصير في غاية الضيق عند النهاية. وادركوا بأذهانكم أنه لا يتحدث عن باب منظور، أو طريق مرئي، إنما هو ينصحنا بما يختص بحياتنا برمتها وبما يختص بالفضيلة والشر. لأجل ذلك، كما ترون، بدأ بقوله: "ادخلوا من الباب الضيق"، وهو يسمي باب الفضيلة بهذا الاسم. فعندما قال: "ادخلوا من الباب الضيق"، يعلمنا بعد ذلك السبب وراء هذه النصيحة. إذ يقول: "إذا كان هذا الباب ضيقًا ويحتاج إلى عناء كبير للدخول منه، إلا أنكم إذا جاهدتم قليلاً أكثر، سوف تدخلون إلى مكان واسع للغاية وإلى طريق رحب يعطيكم راحة عظمى. فلا تنظروا لضيق الباب"، يقول الرب "ولا تدعوا البداية تزعجكم، كما لا تجعلوا ضيق الباب يجعلكم مترددين؛ ذلك أن الباب الواسع والطريق الرحب ينتهيان بكم إلى الهلاك". كثيرون ينخدعون بالبداية وبالمدخل؛ وإذ لا يرون مسبقًا ما سوف يأتي بعد ذلك، يسلمون أنفسهم إلى الهلاك. لأجل ذلك فهو يقول: "واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي إلى الهلاك، وكثيرون هم الذين يدخلون منه". وحسنًا دعاه الرب "الباب الواسع" و"الطريق الرحب" الذي يؤدي إلى "الهلاك". ذلك

أن الشغوفين بالذهاب إلى السباقات وإلى المشاهد الشيطانية الأخرى، الذين لا يهتمون بضبط النفس ولايفكرون في الفضيلة، الذين يريدون التصرف بإهمال وتهور، الذين يسلمون ذواتهم للرفاهية والشراهة، الذين يبذلون ذواتهم كل يوم بجنون وسَعَر في سبيل المال، الذين يجهدون أنفسهم للغاية في سبيل أمور هذه الحياة الحاضرة - هؤلاء الناس يدخلون من الباب الواسع ويسيرون على الطريق الرحب. ولكنهم عندما يتقدمون في المسير، ويجمعون فوق رؤوسهم حملاً ثقيلاً من الخطايا، وعندما يستنفذون ذواتهم تمامًا ويصلون إلى نهاية الطريق، لا يستطيعون بعد ذلك السير إلى ما هو أبعد، لأن ضيق الطريق يضغطهم بشدة وتثقل عليهم خطاياهم لدرجة لا يستطيعون معها العبور. وبذلك لابد وأنهم يصلون في النهاية إلى حافة الهلاك. أية منفعة، أخبروني، من أن يصل الإنسان بعد السير على الطريق الرحب لفترة، إلى هلاك دائم؛ أو بعد أن يتمتع بالرخاء في الحلم، إذا جاز التعبير، يُعاقب في الواقع وفي الحقيقة؟

ذلك أن هذه الحياة الحاضرة بطولها لا تساوي إلا حلمًا في ليلة بالمقارنة مع العذاب والعقوبة التي تنتظرنا. هذا الكلام لم يُكتب لكي نقرأه فقط ولا نفعل أكثر من ذلك، أليس كذلك؟ لأجل هذا السبب جعلت نعمة الروح القدس عظات الرب تُكتب، حتى بنوالنا العلاج منها كدواء لأهوائنا نتمكن من الهروب من العقوبة المعلقة فوق رؤوسنا. ولأجل هذا السبب أيضًا قدّم المسيح إلهنا في ذلك الوقت الأدوية التي تناسب جروح سامعيه عندما نصحهم: "ادخلوا من الباب الضيق"، ولقد دعا الباب ضيقًا، ليس لكونه ضيقًا بالطبيعة، إنما بسبب أن ميولنا، التي تميل عادة إلى البلادة والكسل، تظن أنه ضيق. كذلك لم يدعه ضيقًا لكي يبعدنا عنه، إنما لكي نتجنب وسع ذلك الباب الآخر، ونحكم على كل طريق من خاتمته، وبذلك نفضل أن نختار هذا الطريق الضيق.

ولكن لكي نجعل العظة مفهومة لكل أحد، دعونا إذا وافقتم، نستحضر بيننا هؤلاء الذين دخلوا من الباب الواسع والذين ساروا على الطريق الرحب، وننظر أية نهاية كانت في انتظارهم. ثم دعونا أيضًا نقدم لكم الذين دخلوا من الباب الضيق وساروا على الطريق الكرب، ونرى نوع الخيرات التي كانت في انتظارهم. وهكذا، كما ترون، عندما نضع أمامنا واحدًا ممن دخلوا من الباب الواسع وواحدًا ممن ساروا على الطريق الضيق والكرب، نبيّن حقيقة وصدق كلمات الرب، مستعينين على ذلك أيضًا بمثل من أمثال الرب. فمن هو إذا الذي دخل من الباب الواسع وسار على الطريق الرحب والسهل؟ يجب في البداية أن نبين من هو هذا الإنسان، وإلى أي مدى سار على الطريق الرحب؛ ثم بعد ذلك نبين لكم بوضوح النهاية التي انتهت إليها رحلته. أنا أعلم بالفعل، أنكم من فرط ذكائكم عرفتم ماذا أود أن أقول؛ ومع ذلك فمن الضروري بالنسبة لي أن أقوله. تذكروا معي ذلك الرجل الغني، الذي كان يلبس الإرجوان والحرير النقي كل يوم، الذي كان يأكل ببذخ، الذي كان يطعم المتطفلين والمتملقين، الذي كان يقدم خمرًا صرفًا بكميات كبيرة، الذي سلم ذاته للشراهة وللرفاهية المفرطة كل يوم؛ هذا الرجل الغني دخل من الباب الواسع، وكان في كل لحظة يتمتع بمسرات ومبهجات هذه الحياة. كان كل شيء يتدفق بين يديه كما من نبع، كان له الكثير من الخدم، رخاء لا يُحصى، صحة الجسد، كثرة المال، الكرامة وسط الناس، التمجيد من المداهنين، ولم يكن هناك شيء حتى ذلك الوقت يسبب له الحزن أو الأسى. وأهم من ذلك كله، بينما كان الغني يقضي أيامه في السكر والشراهة، لم يتمتع فقط بالصحة الجسدية والتحرر الكامل من القلق والاهتمامات، إنما أيضًا كان يهمل بدون شفقة ذلك المسكين لعازر المنطرح على بابه، يعاني من القروح، تحيط به الكلاب تلحس قروحه،

وجسده يضمر من شدة الجوع. ذلك الغني لم يشرك لعازر حتى في الفتات الساقط من مائدته. الرجل الذي دخل من الباب الواسع سار على الطريق الرحب، طريق الرفاهية، والفسق، والضحك، والراحة، والشراهة، والسكر، واكتناز الأموال، والاستهتار في الملابس. طوال زمن هذه الحياة الحاضرة كان يسير على الطريق الرحب، دون أن يُجرب بأي شيء مؤلم، إنما كان على الدوام محمولاً على رياح لطيفة ومريحة؛ وطالما كان سائرًا على الطريق الرحب، ظل يقطع رحلته بدون قلق أو اهتمام. وطوال رحلته لم تقابله قط أرض وعرة، أو منحدرات خطرة، أو صخور تحت سطح المياه، ولم تنكسر به السفينة، ولم يقابله تغيير مفاجئ؛ إنما هو كان يسير باستمرار على طريق ثابت وناعم وممهد قطع عليه شوط حياته الحاضرة. إلا أنه كان في كل يوم يغرق في أمواج الشر دون أن يلاحظ ذلك. كانت تمزقه في كل يوم الشهوات الشريرة ومع ذلك كان يمتع نفسه. كان باستمرار محاصرًا بالفسق، والشراهة، وبجنون المال، ولم ينتبه لهذه الأمور الخطيرة المرعبة، كما أنه لم يتمكن من التنبؤ بنهاية الطريق مسبقًا؛ بل بتمسكه بالمسرات الحاضرة فقط، لم يفكر في العذاب الدائم. وفي انخداعه، إذا جاز التعبير، ظل سائرًا على الطريق الرحب، مندفعًا نحو الجرف الحاد الخطير دون أن يلاحظه بسبب سكره: كانت الرفاهية في كل جوانب حياته قد أسكرت عقله وتفكيره، وأعمت عين ذهنه؛ وكإنسان محروم من البصر ظل ذلك الغني سائرًا دون أن يعرف إلى أين. ولعله لم يفكر حتى في طبيعته البشرية لأنه لم يرَ نفسه يواجه أية ضيقة أو مشكلة. فهو لم يكن يتمتع فقط بالرخاء، إنما بالثروة أيضًا؛ وليس بالثروة فقط، إنما أيضًا بصحة الجسد؛ وليس بالصحة الجسدية وحسب، بل وأيضًا بخدمة العبيد؛ ليس فقط بخدمة العبيد الكثيرين، بل وإذ رأى كل شيء يتدفق بين

يديه كما من نبع، قضى ذلك الغني وقته في مسرات وملذات متواصلة. هل ترون، يا أحبائي، الرجل الذي دخل من الباب الواسع وسار على الدوام على الطريق الرحب؟ هل ترون مقدار الراحة التي كان يتمتع بها؟

ولكن قبل أن يصل ذلك الرجل إلى نهايته، لا يجرؤ أحدكم ممن تسمعون هذه الأشياء أن يدعوه محظوظًا وسعيدًا؛ يجب أن تنتظروا نهاية القصة، ثم بعد ذلك قولوا كلمتكم. وإذا وافقتموني، دعونا نستحضر أيضًا بيننا ذلك الرجل الذي دخل من الباب الضيق وسار على الطريق الكرب. وعندما نعرف نهاية الرجلين، نستطيع أن نحكم حكمًا عادلاً على كل منهما. مَنْ هو الذي نستطيع أن نستحضره الآن امامنا سوى لعازر، الملقى على باب الرجل الغني، المعذب من تلك القروح، الذي رأى ألسنة الكلاب تلحس جروحه، دون أن يقوى على طردها؟ تمامًا كما أن الرجل الغني دخل من الباب الواسع وسار على الطريق الرحب، هكذا هذا الرجل المحظوظ (إذ أدعوه محظوظًا من الآن لأنه اختار الدخول من الباب الضيق) دخل من الباب الضيق، الذي يقف في مواجهة ذلك الطريق الآخر حيث الممتلكات الكثيرة. وكما أن ذلك الرجل الآخر عاش في رفاهية متواصلة، هكذا ظل هذا المسكين يصارع الجوع. الرجل الآخر بجوار رخائه وصحته الجسدية تمتع أيضًا بالفائض من المال، وبدده في الشراهة والسكر كل يوم؛ أما لعازر فبجانب جوعه وفقره المدقع وأمراضه وقروحه المستديمة، لم يتحصل حتى على غذائه الضروري، إنما اشتهى الفتات الساقط من مائدة الغني، وحتى هذا الفتات لم يجد من يعطيه إياه.

هل رأيتم كيف أن هذا الإنسان الذي دخل من الباب الضيق ظل سائرًا على الطريق الكرب؟ وهل رأيتم كيف أن الرجل الآخر ظل سائرًا عبر الباب الواسع والطريق الرحب؟ ولكن دعونا نرى أخيرًا نهاية كل منهما، وكيف أن أحدهما وصل إلى نهاية ضيقة، أما الآخر فلقد انتهى إلى مكان رحب واسع مليء بالراحة؛ حتى متى عرفنا ذلك بتدقيق، لا نعود نسير على الطريق الرحب في كل الأوقات كما لا نتطلع إلى الدخول من الباب الواسع، إنما نسعى وراء الباب الضيق ونسير على طريق الأحزان والضيقات، حتى نتمكن من الوصول إلى نهاية حسنة مليئة بالراحة. عندما وصلت حياة كل منهما إلى نهايتها، انظروا أولاً ماذا قال الرب عن الرجل الذي سار على الطريق الكرب. "فمات المسكين" يقول الرب "وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم" (لو١٦:٢٢) . ربما قادته الملائكة في موكب وهي ترفع الرايات أمامه، واعادته إلى مكان الراحة بعد كل الضيقات التي حلت به وبعد رحلته التي سارها على الطريق الضيق الكرب. هل ترون النهاية الواسعة والرحبة التي انتهى إليها الباب الضيق والطريق الكرب ؟ أخيرًا، ينبغي أن تروا أيضًا النهاية المميتة المهلكة التي انتهى إليها الطريق الرحب. "ومات الغني أيضًا" يقول الرب "ودفن". لم يسر أحد أمامه في موكب، ولا أحد رفع الرايات، ولا أحد قاده في الطريق كما حدث مع لعازر. إذ بما أن الإنسان الغنى تمتع بكافة هذه الأمور على الطريق الرحب، وكان له الكثير من الحرس والخدم، أقصد، المتملقين والمتطفلين، فعندما وصل إلى النهاية تجرد من ذلك كله تمامًا بعد تلك الراحة العظيمة أو بالحري بعد الراحة القصيرة والرخاء الذي لم يدم طويلاً. ذلك أن حياتنا الحاضرة كلها تعتبر قصيرة بالمقارنة بالدهر الآتي.

فها أنتم ترون، أنه بعد الراحة القصيرة التي تمتع بها بالسير على الطريق الرحب، كان موضع الحزن والضيقات في انتظاره. أما لعازر المسكين فلقد ارتاح في حضن أبي الآباء إبراهيم، ونال المكافأة التي يستحقها على عذابه الكثير وأحزانه الشديدة. فبعد الجوع والقروح وانطراحه على الباب، اشترك لعازر في تلك الراحة التي لا توصف بالكلمات. أما الغني فبعد رخائه وراحته وشراهته العظيمة وسكره المفرط، لاقى ذلك العقاب الذي لا يرحم وتعذب في اللهيب. ولكيما يعرف كل منها من تلك النتيجة، ما هي منفعة الطريق الضيق وما هي عقوبة الطريق الرحب، رأى كل منهما الآخر من مسافة بعيدة. اسمعوا كيف كان ذلك: "فرفع عينيه" يقول الرب "وهو في الهاوية في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه" (لو ١٦: ٢٣). يبدو لي، أن الرجل الغني لما رأى ذلك الانقلاب الكامل في الأوضاع، ورأى لعازر الذي كان منطرحًا على بابه معرضًا لألسنة الكلاب، يتمتع الآن بمثل هذه الدالة ومتكئًا في حضن إبراهيم، أما هو فكان يتعذب بمثل هذا الخزي بجانب عذابه في اللهيب المتأجج، لابد وأنه شعر بحزنه بحدة أكبر. على كل الحالات، رأى الغني أن الأوضاع انقلبت، وعرف أنه عاش حياة الرفاهية وكأنها كانت حلمًا أو ظلالاً، وأنه الآن يتحمل العذاب الذي لا يُحتمل وأنه وصل إلى نهاية في غاية الضيق بعد الطريق الرحب والباب الواسع ؛ كما أنه رأى أن العكس حدث مع لعازر، الذي يتمتع الآن بتلك الخيرات التي لا ينطق بها بسبب صبره واحتماله في حياته على الأرض. عندما وصل الغني إلى هذه الدرجة من العجز والبؤس وعرف بالخبرة الضلال الذي وقع فيه باختياره الطريق الرحب، قدم توسلاته لأبي الآباء ونطق بكلمات ملؤها الشفقة والدموع. الرجل الذي لم يتحرك بالشفقة سابقًا ولم يتنازل حتى برؤية لعازر المسكين

الملقى على بابه، إنما اشمأز منه، إذا جاز التعبير، وعافته نفسه بسبب نتانة قروحه وبسبب الطيش الذي كان يعيش هو فيه باستمرار والرفاهية التي كان يتمتع بها، الآن يتوسل إلى أبي الآباء ويقول: "يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف أصبعه بماء ويبرّد لساني لأني معذب في هذا اللهيب" (لو ١٦: ٢٤). هذه الكلمات كافية لتحرك الشفقة؛ ومع ذلك. لم يستطع إبراهيم ولا لعازر أن يقدما له أية خدمة على الإطلاق. جاء اعتراف الغني والتماسه في غير وقتهما، لأنه لم يقدمهما في الوقت المناسب. "أرسل"، يقول الغني "ذلك الرجل الذي اسمه لعازر، ذلك المسكين الذي كنت أشمئز منه حتى الآن، الذي لم أعطه قسمًا من الفتات. الآن أنا أطلبه بإلحاح، وأطلب ذلك الأصبع الذي كانت الكلاب تلحسه". هل رأيتم كيف جعله العذاب يتذلل؟ هل رأيتم كيف انتهى الطريق الرحب إلى نهاية ضيقة؟ والرجل الغني لم يقدم التماسه إلى لعازر، إنما إلى إبراهيم. وذلك لسبب وجيه وهو أن الغني لم يجرؤ على النظر للمسكين مباشرة في وجهه بل كان يتذكر، على ما أعتقد، وحشيته وقساوته الخاصة، ويفكر بأية قساوة قلب كان يتعامل مع لعازر، ولذلك تشكك الغني في أن يعطيه لعازر حتى الإجابة على سؤاله. لأجل ذلك، كما ترون، لم يقدم التماسه إلى لعازر، إنما توسل إلى أبي الآباء، وبرغم كل ذلك لم ينل أية منفعة على الإطلاق. هذه هي مصيبة عدم تقديم الالتماس في أوانه، وإهمال زمن حياتنا الأرضية الذي منحنا إياه الله من كثرة صلاحه كفرصة لخلاصنا.

أي فولاذ لا ينثني بمثل هذه الكلمات، ويشعر بالشفقة والتعاطف؟ وبرغم كل ذلك لم يستجب أبو الآباء لتوسلات الرجل الغني. لقد أعطاه بالفعل جوابًا، إنما ليعلمه أنه هو بذاته كان مسئولاً عن الشرور التي

لحقته. إذ يقول إبراهيم للرجل الغني: "يا ابنـــي اذكـــر أنـــك اســتوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر بلاياه. والآن هو يتعزى وأنت تتعـــذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوّة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريـــدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هنـــاك يجتـــازون إلينـــا" (لو ١٦: ٢٥، ٢٦). هذا القول مرعب، وهو كاف ليؤثر في الذين لديهم أقل درجة من الإحساس. إذ لكي يريه إبراهيم أنه هو بذاته يُظهـــر الشـــفقة نحوه، وأن الرأفة تحركت فيه من شدة عذاب ذلك الغني، إلا أنه عـــاجز عن القيام بأي عمل آخر لمعونته، اعتذر له إبراهيم قائلاً: "كنـــت أود أن أمد لك يدي، وأن أخفف عنك الألم، وأقلل من شدة عذابك؛ ولكنك بنوالك الراحة مسبقًا حرمت ذاتك منها الآن". لأجل ذلك خاطبه قائلاً: "يا ابنـــي اذكر". انظروا صلاح أبي الآباء: هو يدعوه "ابني". ولكن مـــع أن ذلـــك يظهر لطف إبراهيم، إلا أنه لا يقدم معونة للرجل الغني لأنه خدع نفســـه بنفسه. "يا ابني"، يقول إبراهيم "اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتـــك: تذكر الأوقات الماضية، ولا تنسى مقدار الرفاهية التـــي تمتعـــت بهـــا، ومقدار الراحة، ومقدار التباهي، وكيف أنك قضيت حياتـــك كلهـــا فـــي الشراهة والسكر، معتقدًا أنك طوال حياتك سوف تنشغل بهـــذه الأمـــور، وحاصرًا الخير في أمور كهذه". لقد حكم الغني على نفسه بنفســـه. ودون أن يتخيل وجود أي شيء أسمى من ذلك أو يضع أمام عينيـــه الشـــرور والمصائب التي تنتظره، اعتقد الغني أن تلك الأمور صالحة وحسنة.

حتى الآن اعتاد أغلب الناس الذين تثيرهم الرفاهيـــة والشـــراهة أن يقولوا: "لدينا خيرات كثيرة"، رغبة منهم في تقييم مقدار الرفاهية العظيمة التي يتمتعون بها. لا تسمى هذه الأشياء خيرات بدون تحديد استخدامها، عالمًا أن الله أعطانا إياها حتى إذا تمتعنا بها بالمقدار المناســـب نحـــافظ على حياتنا ونغلب ضعف أجسادنا؛ أما الخيرات الحقيقيـــة فهـــي شـــيء

آخر. لا شيء من هذه يُعتبر صالحًا في حـد ذاتـه، لا الرفاهيـة، ولا الثروة، ولا الملابس الباهظة الثمن؛ هي فقط تحمل اسم الصلاح. لمـاذا أقول إنها تحمل فقط الاسم؟ لأنها كثيرًا ما تسبب هلاكنا بالفعل، وذلـك عندما نستعملها بطريقة غير صحيحة. الثروة تصير شيئًا صـالحًا لمـن يقتنيها إذا هو لم ينفقها فقط على رفاهيته، أو على المسكرات والملـذات الضارة؛ إذا هو تمتع بالرخاء في حدود معتدلة ثـم وزع البـاقي علـى بطون الفقراء، عندئذ تكون الثروة أمرًا صالحًا. ولكن إذا هـو استسـلم تمامًا للرفاهية وأنواع الترف الأخرى، ليس فقط أن ثروته لن تنفعه شيئًا على الإطلاق، بل وسوف تدفعه للسقوط في الحفرة العميقة. هذا ما حدث لهذا الرجل الغني. لذلك يقول له أبو الآباء: "يا ابني أذكر أنك اسـتوفيت خيراتك في حياتك. لقد نلت ما كنت تعتقـده صـالحًا بالفعـل، وكـذلك استوفى لعازر بلاياه"؛ غير أن لعازر لم يعتقد أن الأمور التـي أصـابته هي بلايا وشرور (حاشا)، بل أضاف إبراهيم هذه الجملة بحسب اعتقـاد الرجل الغني. لأن الغني جعل هذا الاعتقاد أمرًا راسخًا في ذهنه وكأنـه لا مناص منه، فنظر إلى الثروة والرفاهية والخلاعة وكل أنواع العبـث الأخرى على أنها أمور صالحة وخيرّة، أما الفقر والجـوع والمـرض الشديد فكان ينظر إليها على أساس أنها بلايا ومصائب. وكـأن إبـراهيم يقول للغني "هكذا وبحسب اعتقادك الخاطئ، اذكر أنك بحسـب نظرتـك للأمور قد استوفيت تلك الخيرات، أثناء سيرك علـى الطريـق الواسـع والسهل؛ وكذلك لعازر استوفى البلايا بحسب اعتقادك، أثناء دخوله مـن الباب الضيق وسيره على الطريق الكرب، طريق الأحزان والضـيقات. هكذا أنت لم تنتظر إلا إلى بداية الطريق، أما لعازر فكان ينظر أيضًا إلى النهاية، ولم تفزعه البداية، ولأجل ذلك هو الآن يتعزى هنا، أمـا أنـت فتتعذب ؛ لقد وصل كل منكما إلى نهاية عكس الأخرى".

هكذا، يا أحبائي، أظهرت لكم الحوادث من ذاتها ما هي نهاية الطريق الواسع والسهل؛ ورأيتم أية نهاية حسنة تنتظر الإنسان الذي اختار الدخول من الباب الضيق والسير على الطريق الكرب. اسمعوا ما هو مفزع بالأكثر: "وفوق هذا كله"، يقول إبراهيم "بيننا وبينكم هوّة عظيمة أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا" (لو١٦: ٢٦). دعونا لا نمر بصورة سطحية على ما قيل، يا أحبائي، ولكن دعونا ندرس المعنى الدقيق وراء الكلمات، لنعرف عظمة الكرامة والمجد التي تمتع بها ذلك الإنسان الملقى على الباب، ذلك المسكين الذي كان من السهل احتقاره، الذي كان يصارع بإستمرار ضد الجوع، الذي كان مصابًا بالقروح ومعرّضًا للكلاب. أنا سعيد بمناقشة هذه الأمور بتكرار معكم، حتى لا يحتقر أحد المرضى أو الجوعى مكانته، ويشعر بالأسف على نفسه، إنما يحتمل كل شيء بصبر وشكر، فيتغذى ويتقوى بالرجاء الصالح، منتظرًا تلك المكافأة التي لا يُعبّر عنها على آلامه ومعاناته. "وفوق هذا كله". ماذا يقصد إبراهيم بـ "فوق هذا كله"؟ عندما قال: "لقد نلت في حياتك الأرضية كل ما كنت تظنه خيرًا، ولعازر نال كل ما تظنه أنت بلايا ومصائب"، أضاف ما يلي، لكي يعرّف الغني أن كلاً منهما وصل إلى النهاية اللائقة به، فقال بجانب ما ذكره سابقًا: "بعد تمتعك بما اعتقدته خيرًا، استقبلتك الضيقات والأحزان والنيران التي لا تنطفئ، ولعازر بعد صراعه طوال حياته ضد ما ظننته أنت شرًّا ومصيبة، استقبلته الراحة والتمتع بالخيرات، والنياح مع القديسين. وكما ترى، عندما وجد كل منكما النهاية اللائقة به، وبعدما قادك الباب الواسع والطريق الرحب إلى هذه النهاية الضيّقة، وبعدما وصل لعازر عبر الطريق الضيّق الكرب إلى هذه الراحة، ففوق هذا كله بيننا وبينكم هناك هوّة عظيمة قد أثبتت".

انظروا إلى الرجل المسكين، الذي كان يعاني من القروح (أنا أكرر ذلك مرة أخرى)، محسوبًا مع أبي الآباء ومعدودًا في خورس الأبرار. إذ يقول إبراهيم: "بيننا وبينكم". أرأيتم نوع الراحة التي في انتظار الرجل الذي احتمل ذلك المرض اللعين وذلك الجوع الشديد بكل صبر وشكر؟ "وفوق كل هذا" ، يقول ، "هناك هوّة عظيمة أثبتت". إن ما يفصلهما هو شيء عظيم، كما يقول إبراهيم، وليس فقط مجرد هوّة، إنما هي هوّة عظيمة. وبالفعل هناك مسافة كبيرة جدًّا بين الفضيلة والشر، وهناك اختلاف عظيم. الواحد واسع وسهل، أما الآخر فضيّق ومليء بالأحزان. الرفاهية واسعة وسهلة، أما الفقر والفاقة فهما ضيّقان ومليئان بالأتعاب. هكذا كما أن الطريقين متعارضان في هذه الحياة، فالإنسان الذي يختار البتولية يسير على الطريق الضيّق طريق الأحزان، وهكذا أيضًا الذي يسعى وراء العفة، ويعتنق الفقر الاختياري، ويزدري بالمجد الباطل؛ أما الإنسان الشغوف بالسير على الطريق الرحب والسهل فيسلّم ذاته للسكر، والتنعم، وجنون المال، والخلاعة، والمشاهد الضارة فإن الفرق بينهما شاسع جدًّا؛ هكذا أيضًا في زمن العقوبة والمكافأة، هناك مسافة كبيرة جدًّا تفصل بين مكان العذاب ومكان الراحة. "هوّة عظيمة"، يقول إبراهيم، "أثبتت بيننا"، أي، الأبرار، الفضلاء، الأتقياء، الذين كانت الراحة من نصيبهم، "وبينكم"، أي الذين انغمسوا في الشر والخطيئة. "هوّة عظيمة حتى إن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا". هل رأيتم عظمة تلك الهوّة؟ هل رأيتم عقابًا أشنع من الجحيم؟ عندما سمعتم في البداية عن رفاهية ذلك الرجل الغني، وكيف كان يخدمه الكثير من الخدم والأتباع، وكيف كان يفرغ نفسه كل يوم للتنعم بالملذات، ألم تعتقدوا أنه في غاية السعادة وأنه محظوظ جدًّا؟ وأيضًا، عندما رأيتم الرجل المسكين منطرحًا على الباب

مصابًا بتلك القروح الشنيعة، ألم تشفقوا على حياته؟ ولكن انظـــروا الآن، فإن نهاية الأحداث تبيّن العكس تمامًا: فها هو الرجل الغني يتلظـــى فـــي النيران بعد رفاهيته وسكره، أما لعازر فيتكئ في حضن إبـــراهيم بعـــد الفقر المدقع والجوع الشديد.

ولكن لئلا تطول العظة أكثر من ذلك، نتوقف عند هذه النقطة ونكتفي بذلك، ونتوسل إلى محبتكم أن لا تسعوا وراء الباب الواسع أو الطريـــق الرحب، ولا تتطلعوا باستمرار إلى الراحة، إنما تذكروا على الدوام نهاية كل طريق، واهربوا من الطريق السهل الواسع، متأملين فيما أصاب هذا الرجل الغني، ساعين وراء الباب الضيق والطريق الكرب، حتـــى بعـــد العذاب والضيقات هنا لعلنا نصل إلى مكان الراحة. اهربوا إذًا، أرجوكم، من مشاهد إبليس ومن المناظر الضارة التي ترونها في السباقات. ولأجل الذين أغووا بالسير على الطريق الرحـــب اضـــطررت أن أقـــول هـــذه الأشياء، حتى يعرفوا أنه يجب عليهم ترك ذلك الطريق، وبالسير علـــى الطريق الكرب، أقصد طريق الفضيلة، ربما يُحسبون أهلاً للإتكاء فـــي حضن إبراهيم أبي الآباء مثل لعازر. وكذلك لكيما إذا نجونا جميعًا مـــن نار جهنم، نتمتع بتلك الخيرات التي لا توصف، التي لم ترها عين ولـــم تسمع بها أذن. ليتنا نصل جميعًا إلى ذلك، بالنعمة والمحبة التـــي لربنـــا يسوع المسيح، الذي له مع الآب والروح القدس المجد والقوة والكرامـــة، الآن وإلى الأبد وإلى دهر الدهور. آمين.

انتهت العظات الست للقديس يوحنا ذهبي الفم

على مثل "لعازر والرجل الغني"

(لو ١٦: ١٩-٣١)

والمجد للرب

الفهرس

+++